حقائق قد لا تُصدّق

تجربة مناضلة كما عاشتها وراء القضبان

رحلة العذاب في زنازين الملالي

هنكامه حاج حسن

إهــداء

إلى شِكَر وأمثالها من المجاهدات الإيرانيات رافعات راية الحرية اللواتي انتفضن للدفاع عن قيم الإنسانية والحرية في مواجهة أبشع نظام دموي معاد للمرأة والإنسان

مقدمة

من لا يعرف النظام الإيراني من داخله ، ومن لم يعش تحت سطوة حُكم الملالي ، قد لا يُصدّق الكثير من الحقائق التي أوردتها المناضلة الإيرانية هنكامه حاج حسن في كتابها هذا المتضمن تفاصيل تجربتها داخل سجون وزنازين حُكم الاستبداد المتستّر بقناع الدين.

مهما تخيّل أي منا مدى وحشية أساليب التعذيب الأكثر دموية في هذا الكون ، لن يتصوّر إلى أي حد وصلت حالة القهر والإذلال التي يعاني منها الإنسان في إيران منذ استيلاء خميني وأتباعه على السلطة . يكفيني الإشارة هنا إلى بعض أغرب ما يعلق في الذهن بعد قراءته ، ليتأكد القارئ من صحة ذلك ، فكيف إذا ما أكمل الإطلاع على كل التفاصيل ؟

أي دولة في الدنيا وصلت بها درجة الإستهانة بكرامة الإنسان إلى درجة إقدامها على إصدار أحكام اعتباطية بالإعدام وتنفيذها على عجل ليس بحق القاتل أو المجرم الحقيقي ، بل بحق المعارض السياسي والمرأة المعارضة على وجه خاص ، دون محاكمة يتوفر فيها الحد الأدنى من متطلبات العدالة ، بل من قِبَل محقق يأخذ صفة قاض يمارس عمله في مكتب واحد وحتى غرفة واحدة إلى جانب المحقق الأمني والمشرف على التعذيب!

في إيران الملالي وحدها يحدث ذلك كما يحدث الأفظع منه بكثير.

في إيران الملالي وحدها يجري الحكم على المرأة المعارضة ، خصوصا إذا كانت من المجاهدين بالإعدام وهي حامل بطفلها منذ عدة شهور بتهمة إخفاء معلومات أو التحريض ضد النظام ، أو مجرد التعاطف مع المجاهدين . ثم يجري تنفيذ هذا الحكم المجحف بحقها وحق جنينها الذي ما يزال حيا في بطنها ، مع أن شرائع الدنيا وفي صدارتها الإسلام تحمي الجنين في بطن أمه وهو ما نص عليه إعلان جنيف لحقوق الطفل الصادر عام 1924 وكذلك اتفاقية حقوق الطفل الدولية في أواخر ثمانينات القرن الماضي!

لن نتحدث عن قلع الأظافر ولا الضرب بـ "كيبل" الحديد على سائر أنحاء الجسم ، والتعليق من الأرجل وتمزيق الأقدام والشفاه وإدماء العيون .. إلى آخر الصنوف التي يصعب حصرها ، لأنها ممارسات إعتيادية يومية في عُرف الملالي. بل دعونا نتخيّل في أي مكان بالدنيا ومهما بلغت همجية نظامه تقوم سلطاته الأمنية والمخابراتية باعتقال شقيق أو أب أو زوج المتهمة أو المتهم بدلا منه أو منها ويزجوه في السجون إذا لم يتمكنوا من العثور على الشخص المطلوب ، وبأي شريعة أو قانون لا يتم الإكتفاء بإعدام مناضلة مع أنها العقوبة القصوى ، بل يقوموا بجلدها قبل ذلك تنفيذا لعقوبة أخرى ثم يجري إعدامها بعد ذلك!

إذا كان مثل هذا الإجراء لا يعكس قمة الظلم ومنافاة العدالة والشعور الإنساني في عُرف الملالي أيضا . فماذا يمكننا أن نقول إذا علمنا بالوثائق والأسماء أنهم لا يحتفظون بهذا البديل في زنازينهم الرهيبة حتى يُسلّم المطلوب نفسه، أو يُلقى القبض عليه ، بل يقومون بتعذيبه وجَلدِه وتعليقه من قدميه حتى يفقد الوعي ويُصبح على شفير الموت!

نعم ، هذا بعض ما جاء في ذكريات الكاتبة حول التجربة التي عاشتها بالأسماء والتواريخ والأمكنة.

نبيل ابوجعفر

الكاتب الصحفي المقيم في باريس

الفصل الأول

الظروف السياسية والاجتماعية
في إيران العام 1981

هكذا بدأتُ معرفة الحقيقة

قد لا يكون من الخارق بالنسبة لطالبة تمريض أن تتفاعل مع الثورة، ذلك لأن هذا التفاعل يعكس توقها للحرية وتحرر شعبها. غير أنني في ذلك الوقت كنت غريبة على عالم السياسة ولم أكن على معرفة بطبيعة وأفكار مختلف القوى السياسية، ولا عن أولئك الذين استولوا على السلطة وأصبحوا حكامنا. لقد كنت عطشى للمعرفة و كان ذهني خاليا من أية أفكار مسبقة. ولذا بذلت جهودا لكي استوعب مواقف مختلف التيارات السياسية وتقييم مصداقيتها فقرأت الصحف والكتب التي حصلت عليها بلهفة، آخذة بعين الاعتبار ظروف المجتمع والانفتاح النسبي للأجواء السياسية بعد الثورة على نظام الشاه. كان كل نشاط تقريباً ليس عصيا عليّ، فكنت أشترك في سائر اللقاءات والأحاديث وأستمع بدقة لما يُقال ويُطرح. وتدريجياً اتضحت لي مختلف التنوّعات والمنطلقات السياسية بعد أن كانت تبدو غامضة ومتداخلة، وأصبحت أكتشف شيئا فشيئا أنه رغم التشابه بين أطروحاتهم وإطلالاتهم الظاهرية إلا أن مدى التناقض بين أقوالهم وأفعالهم على أرض الواقع كالمسافة بين الأرض والسماء. وهكذا بدأتُ أشعر بالتدريج مدى الفارق بين مبدئية وأفكار مجاهدي خلق وأسلوب عملهم السياسي وأساليب وأطروحات الآخرين، فأصبحوا بالنسبة لي أكثر قربا ومصداقية، وقد بدأ كلامهم يرسخ في ذهني كما لو كان نفس كلامي تماماً، وكنت كل يوم صباحاً إذا لم أقرأ نشرة "المجاهد" أبدوا وكأني ضائعة.

فـي البداية لم يكن بمقدوري التعرّف لماذا وضعوا مجاهدي خلق في قائمة الملاحَقين والمطلوبين لأجهزة النظام القمعية، مع أنهم يعُبّرون بكل حماس عن الرغبات والمطالب

البديهية والشرعية والمتوقعة للمواطنين، ولا يريدون مسؤولية ولا منصباً لأنفسهم. فلماذا أصبح الملالي الذين أوصلتهم الثورة إلى السلطة وهم مسلمون يكنّون كل هذا العداء لمجاهدي خلق الذين هم مسلمون أيضا؟

كنت آنذاك غير ناضجة ذهنياً ولذلك لم يكن بمقدوري أن أعرف جذورهذا العداء، ولا تلك الحرب القائمة بين القراءتين المتباينتين لجوهرالإسلام. كان الإسلام بالنسبة للملالي وسيلة للوصول إلى السلطة وقمع الشعب، وكان بالنسبة للمجاهدين يُعبّرعن الحرية والتحرر والانعتاق وتحقيق الرفاه وأمن الشعب.

أنا وصديقاتي وزميلاتي في الدراسة شكر محمد زاده، وتهمينه رستكار مقدم، وطوبى رجبي ثاني، وكبرى علي زاده، وأكرم بهادر، وعزت...، اللواتي كنَ من ألمع طالبات صفنا وأكثرهن عطفاً، قمنا باختيار مسيرة مجاهدي خلق منذ البدايات باعتبارهم بصيص الأمل الوحيد في مواجهة رجعية الملالي. وسلكنا منذ العام 1979 طريقًا لا رجعة عنه. لم نكن ندرك يومها ولا نعي حجم المتاعب والمشقات التي تنتظرنا في هذا الطريق، طبقا لقول الشاعر الإيراني حافظ الشيرازي (إن العشق بدا سهلاً في البداية ولكن المشاكل ظهرت فيما بعد...).

دعوني أضيف بصفتي امرأة أنه رغم كوني من أنصار مجاهدي خلق، إلا أن ظلالا من الشك كانت تنتابني في بعض الأحايين فيما يتعلق بنظرة مجاهدي خلق تجاه قضايا المرأة والموقف منها، ولا سيما موضوع الحجاب. لذلك كنت أتساءل لماذا المجاهدات يرتدين الحجاب، وكنت دائماً في لقاءاتهم وتظاهراتهم صاغية ومتهيئة لأن يسألني أحدهم لماذا لا ترتدين الحجاب؟ وكنت في ذلك كمن يبحث عن الجواب. هل لكوني امرأة سافرة سيفرضون قيوداً عليّ أم لا، وهل سيميّزون بيني وبين النساء المحجبات، وهل سيتعاملون معي كما يتعامل الملالي مع المرأة برؤية (المرأة نصف الرجل)، أم لا؟

لكن هذه التساؤلات لم تُطرَح قط في إطار جمع مجاهدي خلق، وسرعان ما زالت بقية هذه الشكوك التي انتابتني خلال العمل والنشاط السياسي انتهت، خاصة في خضم المشاركة

بالتظاهرات المنددة بشعار(«يا روسري يا توسري» أي « إما الغطاءعلى الرأس او الضرب على الرأس») التي أشاعها خميني واتباعه في المجتمع. فحينما كنت أسير إلى جانب سائر النساء المجاهدات للمشاركة في التظاهرات المنددة بفرض ارتدائه رغم أنني لم أكن أرتدي الحجاب، تعرضنا جميعا إلى الضرب والتعذيب من أوباش وجلادي أتباع خميني، ورأيت بعينيّ آنذاك جموع المجاهدات وهنّ يدافعن بكل قوة وإيمان عن حقوق النساء في اختيارماهيّة الحجاب الذي يُردن ارتداءه، وبهذا تيقنت أن هذا نفس الشيء الذي قد سعيت وراءه.

رأيتُ في ربيع سنة 1979 فريدة إحدى زميلاتي في الدراسة بصحبة عدد من طلاب كلية الطب في مستشفى (هزار تختخواب) أي الألف سرير، الذي سمي فيما بعد باسم مستشفى (إمام خميني). رأيتهم يوزعون المنشورات التي يصدرها المجاهدون. ركضت نحوهم وقلت سآتي معكم أنا أيضا، ضحكوا وقالوا اليوم لا، لكن تستطيعين أن تأتي فيما بعد. سألت نفسي لماذا لا يسمحون لي بذلك؟ ربما بسبب كوني لا أرتدي حجاباً مثلهم، فأصرّيت وقلت سآتي خلفكم ولو أن هذا يخالفكم، إنكم لا تستطيعون منعي. وفي النهاية قالت فريدة: طيّب إنتظري هنا وسأعود بعد قليل. أدركتُ فيما بعد أنها ذهبت لتطلَعَ مسؤولها على دخول شخص جديد إلى فريقهم، فأخذوني معهم. وكانت هذه بداية عملي في المساهمة بنشر أفكار ومواقف مجاهدي خلق. وكان يتضمن عملنا توزيع وتعليق الملصقات وبيع جريدة «مجاهد» وإقامة معارض الكتاب والدعاية والتعريف بمرشحي المنظمة. كنا نذهب يومياً إلى هذا العمل فنواجه على الدوام تقريباً هجمات البلطجية والمتوحشين من اتباع النظام، وكنا نعود إلى بيوتنا ورؤوس بعضنا أو وجوههم دامية متورمة لأن كوادرمجاهدي خلق كانوا يؤكدون علينا بوجوب عدم الإشتباك، لأن عملنا في الأساس سياسي يستهدف فضح حقيقة خميني.

في أحد الأيام حاصر الأنذال من أتباع النظام تلميذة صغيرة تبيع الجريدة في ساحة حسن آباد فقاموا بضربها وحاولوا أخذ أعداد جريدة «مجاهد» من يديها والقيام بتمزيقها. كانت البنت الصغيرة تقاومهم بشدة وقد جعلت جسدها النحيل حائلاً بينهم وبين أعداد الجريدة،

فأصبحت عظامها عرضة لسطوة اللكمات والركلات بسلاسل وعصي أولئك الوحوش، إلى أن هبّ عدد من المارة وأصحاب المحلات إلى مساعدتها وإنقاذها بعد أن أصيب رأسها ووجهها وتمزقت ثيابها، وقاموا بإخراجها من ساحة "المعركة" على نقالة.

لقد حدثت لي مثل هذه الواقعة في شارع الدكتور فاطمي، غير أن الموظفين المتواجدين في المبنى المجاور هبّوا للدفاع عني ففرّعملاء النظام، وقاموا بجمع نسخ الجريدة الممزقة وأعطوها لي، كما ساعدوني مالياً بأكثر من ثمن هذه النسخ الممزقة ونقلوني بكل مشاعر المحبة والإنسانية إلى مكان آمن.

في مثل هذه الحالات اتضح لي بعمق ومن خلال العمل والتجربة مدى مصداقية ما قرأته في النظريات وفي الكتب.، وكان من جُملة ما دفعت ثمنه لقاء تعلمي ذلك الدرس الكبير الذي أخذته، وهو أن الحكام ولاسيما هؤلاء الملالي الذين سيطروا على زمام السلطة بهذه السهولة، وتمسكوا بها بكل وجودهم، سوف لن يألوا جهدا للتدخل في كل عمل من أجل المحافظة على مواقعهم. لذا، أعترف بالتأكيد أن إدراكي لممارسات خميني وجرائمه لم يكن بذلك المستوى،قياسا بما فهمته فيما بعد في السجن وبعد سنين تجربة السجن.

معركة الحجاب على حقيقتها

في الوقت الذي أعلن فيه الحجاب إجبارياً، كنت ما زلت في مكان عملي بالمستشفى. يومها أثير ضجيج حول زي الممرضة بتلك القبعة البيضاء الجميلة والثياب الخاصة التي تعطي لها هوية المرأة، وجرت المطالبة بتغييره.، فرفضت الممرضات تبديل زيّهن المميز بالزي المرغوب من قبل النظام.كان زينا العامل الأساسي الذي جعلني مولعة بمهنة التمريض، فقد كانت الممرضة ترسخ في ذهني منذ الطفولة بتلك الملابس البيضاء والقبعة الجميلة كالملائكة ذات الأجنحة البيضاء التي تهرول في اللحظات الحرجة بخطوات سريعة نحو أسرّة المرضى لتخفف الآلام الثقيلة من على أكتافهم وتضع المرهم على جروحهم. أما الآن فقد أصبحت أرى مدى التطاول عليهن في محاولة لقلب صورة المحبة إلى كابوس.أعتقد أن

كل صديقاتي وزميلاتي في الدراسة اللواتي قد عرفتنّ بأخلاقهنّ الطيبة كنّ يعتقدن مثلي أيضا، لهذا السبب استمرينا في المقاومة أسابيع حتى وصلنا إلى مرحلة واجهت فيها النساء الإيرانيات شراسة الجلادين الذين لم يتوانوا عن رش وجوههن بحامض النتريك، وقاموا بمضايقتهن إلى أقصى حد وتضيق الخناق عليهن واتهامهن باتهامات مخلة بالشرف كي يعملوا على طردهم من حيّز المجتمع.

كنا أنا و (تهيمنة رستكار مقدم) زميلتي دراسة وعمل في مستشفى سيناء وكانت شكر محمد زاده تعمل تلك الأثناء في مستشفى (هزار تختخواب)، وكنا جميعا معارضين. وقد تم التعرف علينا من قبل أتباع النظام وتعرضنا لحقدهم،رغم أن الجميع كنّ يرتدين الحجاب ما عداي وامرأتين أخريين اختارتا الحجاب بعد تعرفهن على مجاهدي خلق. ومع ذلك فإن هذا لم يمنع النظام الرجعي الحاكم من صب جام غضبه عليهن، وهذا يعني أن فرض الحجاب لم يكن نتيجة تصوّر رجعي من قِبل الملالي، بل وسيلة من وسائل القمع والاحتقار للمرأة بالدرجة الأولى، ثم قمع كل المجتمع بعد ذلك.

هذا على صعيد الملاحقة اليومية، أما على الصعيد السياسي فإن الصورة لم تكن بهذا الوضوح، ذلك لأن مثل هذه الممارسات كانت تّسنَد إلى زمر قمع غير رسمية ـ ظاهرا على الأقل ـ، حيث كان أوباش النظام الذين يتظاهرون بالإنتماء إلى أحزاب ومنظمات يقومون بممارساتهم العدوانية إنطلاقا من وضعهم الوظيفي أو العملي. فعلى سبيل المثال قام أوباش الملالي بإجبار الحارس المتواجد في مدخل المستشفى على تسجيل أسماء النساء غير المحجبات اللواتي يأتين إلى المستشفى وقد اعترضني هذا الحارس ذات مرة أو اثنتين أثناء دخولي وطلب مني بلطف أن أرتدي حجاباً أثناء دخولي، لكني رفضت. وفي أحد الأيام قال لي بهدوء: يا سيدة لقد أبلغوني أنني إذا لم أعط أسماء السيدات غير المحجبات سيطردوني من العمل. طبعا هذا ليس عملي ولا أريد أن أكون جاسوساً لهم، لذلك أرجوك كي تُبطِلي عليهم حجتهم أن تضعي شيئاً على رأسك عند الوصول إلى بوابة المستشفى وعندما تدخلين ارفعيه، وزاد قائلا: أنا متزوج ولي أطفال وإذا طردوني من العمل لن أستطيع أن أوفر لهم لقمة العيش، فأجبته: اكتب اسمي ولن أنزعج منك أبدا، وأني أعلم أنك

مضطر على ذلك، ولكن اعلم أنت أيضًا أنني لا أستطيع أن أنفذ تعليماتهم القسرية ولن أقبل هذا التحقير من قبلهم. وفي الحقيقة كنت قد قررت أن أقاوم وأن لا أستسلم حتى لو دفعت حياتي ثمنا لذلك.

في ظل هذه الأجواء وانعكاساتها أصدروا حكما بطرد شكر من المستشفى الذي تعمل فيه بتهمة قذرة مبيتة ومدروسة وهي التردد على غرف نوم الأطباء، الأمر الذي أثار ضجة كبيرة في المستشفى فور الإعلان عن ذلك، لأن الجميع كانوا يعرفون شكر وكانوا يعلمون أن هذه الاتهامات القذرة التي بدأوا يحيكونها قد ولّدت موجة احتجاجات من جانب كل أطباء وممرضات المستشفى أدت إلى فضح أهدافها.

بعدها، جاءت والدة شكر يوماً وهي تصرخ بصوت عال في أرجاء المستشفى مهددة بفضح المدبر لابنتها وقالت لأزلام النظام: سأرغمكم على الاعتراف بالحقيقة وهي أنكم تطردونها بسبب التزامها بعقيدة مجاهدي خلق، لكنكم جبناء وليس لديكم الجرأة على إعلان ذلك فاتهمتموها بتهمة قذرة. أما بالنسبة لي فأنني أفتخر بأن سبب طردكم ابنتي يعود إلى مساندتها للمجاهدين، ولن أسمح لكم أن تلصقوا سمعتكم السيئة بها.

وهكذا مع اتساع دائرة انعكاس عملية الفضح هذه، اضطر أتباع النظام إلى إلغاء حكم طرد(شكر) وسمحوا لها بالعودة إلى العمل ثانية ولكن ليس في نفس المستشفى بل في مستشفى آخر، ذلك لأنه لم تعد لهم عين على تحمل هذه الهزيمة التي لحقت بهم. وكان في نيّتهم الإستمرار بتهديد الأخريات وقمعهن بنفس الأسلوب كي يكونن مطيعات لهم. وهكذا تم تحويل شكر إلى مستشفى سينا المكان الذي أعمل فيه، حيث واصلت العمل على دعم مجاهدي خلق.

أحداث 20 حزيران وتداعياتها

وهكذا واصلنا عملنا في مستشفى سينا أيضًا بنفس النشاط السياسي والإعلامي لصالح مجاهدي خلق حتى يوم 20 حزيران سنة 1981، هذا اليوم التاريخي الدامي الذي سُجِّلت فيه وحشية خميني تجاه الجميع.

كنت يومها مناوبة في عملي بالمستشفى وعلى علم بأن المنظمة ستنظم إحدى التظاهرات السلمية بعد الظهر. وفجأة امتلأت المستشفى بأعداد من الجرحى والشهداء الذين أصيبوا بعيارات نارية مباشرة، وقد بدأنا نأخذ جثث الشهداء إلى البراد وننقل الجرحى إلى أقسام المستشفى وغرف العمليات. ولما علمنا أن الحرس قد هاجموا بكل قساوة ووحشية المستشفيات الأخرى وأنزلوا الجرحى من الأسرّة وأخذوهم معهم، قمنا فوراً بالتعاون مع كل العاملين في المستشفى بإخراج الجرحى من ذوي الإصابات الطفيفة وأرسلناهم إلى بيوتهم. أما الجرحى الذين كانت حالاتهم حرجة أو فاقدي الوعي، فقد أفسحنا لهم أماكن بين المرضى العاديين حتى لا يستطيع جواسيس النظام في المستشفى العثور عليهم ، ما عدا شهيد واحد كان تلميذًا وقد أصيب برصاصة في جبينه فأخذه الحرس معهم. وهكذا استطعنا المحافظة على الآخرين من بطش قوات الحرس.

بعد ذلك، قامت قوات الحرس في اليوم التالي بمهاجمة المستشفى لاعتقالنا نحن باعتبارنا من أنصار

مجاهدي خلق المعروفين، فانتظَرَنا زملاؤنا ونحن في طريقنا إلى المستشفى وأخبرونا بوجوب عدم الذهاب إلى المستشفى لأنهم يريدون اعتقالنا، وكنا ندرك أنهم لو اعتقلونا سيكون مصيرنا أيضًا مثل أولئك الرجال والنساء الذين اعتقلوا في التظاهرات والأماكن الأخرى. في النهاية بدأ النظام منذ تلك الليلة 20 حزيران عملية الإعدامات بصورة علنية التي طالت أيضا التلاميذ من صغار السن، دون أن يعرفوا حتى أسماءهم!

حين يُصبح إسعاف المصابين جريمة!

بقى الجميع حائرين مبهوتين أمام ما يرون ويسمعون، وكنا كذلك مثلهم حيث اعتُقلت شكر يوم 21 حزيران في مستشفى أبادانا بينما كانت منشغلة بإسعاف الجرحى طوال الوقت دون توقف بسبب كثرة الجرحى والمصابين وملحاحية العمل على إغاثتهم والعناية بهم.

نقلوها إلى سجن إيفين فهربنا أنا و تهمينة وسائر زميلاتنا من المستشفى واختبأنا ولم نذهب إلى منازلنا لأنه كان من المتوقع أن يهاجمونا لاعتقالنا. والغريب في هذا الموضوع أن جريمتنا في نظرهم، وكما ذكروها لعوائلنا هي "مساعدة الجرحى" في الوقت الذي كانت فيه هذه هي مهنتنا، ولا يوجد أي قانون في العالم يسمح لهم باعتقال طبيب أو ممرضة، لأن هذا على رأس واجبات كل منهم، ولا يُعَدّ بالطبع تستحق الإعدام كما يرى نظام خميني.

في الأيام التي قد هربت فيها، كنت أعمل خفية في المستشفيات الخاصة مستفيدة بذلك من عائلتي، حيث أجد مكانا أقيم فيه. أما في الليالي التي لا أكون فيها مناوبة كنت أذهب كمضيفة إلى منازل أقاربي ومعارفي. وأذكر أنني عندما عملت خلال تلك الفترة في مستشفى (سجاد) و(شهرام)، كيف أحضروا في أحد الليالي ثلاثة فتيان تتراوح أعمارهم بين (16-17) سنة إلى المستشفى وهم جرحى بطلقات نارية أحضرهم أفراد حرس النظام المسلحين وسط ضجة وأصوات مرتفعة وإطلاق رصاص، وقالوا: إن هؤلاء من أنصار المنافقين أُصيبوا أثناء مقاومتهم عملية اعتقالهم من قبل الحرس.

نقلنا الفتيان الثلاثة فوراً إلى غرفة العمليات حيث أُجريت لهم عمليات جراحية، ودخل الحرس المسلحون إلى غرفة العمليات أيضًا ووقفوا أمامهم. اعترض الطبيب الجراح على ذلك وطلب منهم مغادرة الغرفة لكنهم لم يستجيبوا بل وجهوا فوهة السلاح نحو رأسه وهددوه، ونقلوا فوراً بعد العملية اثنين من الجرحى إلى السجن بعد أن تحسنت حالتهم وخرجوا من حالة فقدان الوعي.

وبعد نقل اثنين من الفتيان الجرحى، بقي كادر العمليات وكل المنتسبين الذين شاهدوا هذه الحادثة مذهولين ومستائين لفترة وكان بعضنا ينظر للآخر بصمت، ولم يستطع أي منا آنذاك ممارسة عمله.

أعتقد أننا في تلك اللحظات قد سادنا نفس الشعور بالمرارة، أي تساءلنا حول جدوى ما نؤمن به: هل إن إنقاذ الإنسان من الموت في هذه الحالة عمل مجد، أم أننا نرسله بأيدينا إلى سجون التعذيب ليقتلوه ببطء؟ كان مرض الشكّ يلتهم روحي، وأصبحتُ عاجزة عن فعل أي شيء ولم أكن أشعر قبل آنذاك بأني عديمة القيمة وعاجزة إلى هذا الحد، خصوصا عندما وجدت نفسي غير قادرة على إنقاذ فتي جريح كان وحيدًا وصريعًا في قبضة هؤلاء الدمويين، وبسرعة سيكون مصيره مثل الفتيان الذين كانوا معه وكانوا كل ليلة يجرّونهم على شكل مجموعات بمئة أو مئتين أمام مفارز الإعدام، وكان جلادوا النظام يعدمون هذا العدد من الأبرياء حتى بدون أن يكلفوا أنفسهم معرفة أسمائهم.

فتى في حالة الاحتضار

نُقل الجريح الثالث إلى قسم الطوارئ نظرا لأن حالته كانت حرجة جدا إذ أصيب في أعلى فكه من جهة الوجه، وبقى عدد من أفراد قوات الحرس الجناة واقفين أمامه وهو يحتضر وغارق بدمه، بينما أخذ أفراد قوات الحرس باقي الفتيان معهم، كأن جميعنا ومن دون أن نتبادل الحديث فيما بيننا كنا قد تعهدنا بأن نمنع أفراد الحرس من المس بحياة هذا الفتى.

ذهبت إلى جواره بحجة متابعة حالته وقلت لإحدى زميلاتي الممرضات هناك راقبي وأشغلي أفراد الحرس عنه لأقول له شيئاً. وأثناء قياس ضغط الدم والكشف عليه قلت له بهدوء: إذا كنت تسمع صوتي انتبه إلي أنا أيضا أختك ونصيرة للمجاهدين. إن من أعراض الإصابة بالجلطة الدماغية هي الشخير والتحريك الدائم للأيدي والأرجل، وعليك أن تُظهر هذه الأعراض التي شرحتها لك، وبعد دقائق عمل على تنفيذ ما قلته له فتأكدتُ أنه واع لما حوله.

كان فتى يافعاً بعمر أخي الصغير الذي كان تلميذًا مجتهدا وذكيًا ولكنه كان مشاغباً ومتمردا. فقد كان يلعب كرة القدم في الزقاق كما يلعب مع أختي الصغيرة ويمازحها بصوت عال. وكانت والدتي تراقبه دائما حتى لا يتدخل في شؤون الآخرين ولا يؤذي الجيران. لكنه كان عطوفا يحبه الناس ويساعدهم في شراء حاجياتهم وأي شيء آخر، كأن يصعد على جدران منازلهم كي يفتح لهم الباب إذا بقى المفتاح داخل المنزل مغلقاً. ومازلت أذكر كيف أنه وجد مرة قطة أو حمامة وجلبها إلى سطح وطلب مني أن أرعاهما وألا أترك تلك الحيوانات البريئةأن تموت. وحالياً هناك شخص بنفس عمره بقي جريحاً ووحيداً، وربما أستُهدِف بسبب قراءة نشرة أو ممارسة الرياضة الصباحية في المدرسة أو المجادلة حول مجاهدي خلق وأصيب برصاصاتهم، ويتصارع مع الموت على سرير المستشفى.

خلال اليومين أو الثلاثة أيام التي كان فيها حياً حاولنا وبطرق مختلفة أن نفعل شيئاً لعلنا نتمكن من تخليصه، ولكن أفرادا من الحرس المسلحين كانوا يجلسون ليل نهار إلى جانبه في داخل قسم الطوارئ. ولما كانت إصابته بليغة لم يكن بوسعنا أن نفعل شيئاً إلى أن سنحت الفرصة حين خرج الحارس لعدة دقائق فذهبت ممرضة القسم عند رأس الفتى وتحدثت معه وطلبت منه أن يثق بها ويعطينا أسمه وعنوانه كي نحاول مساعدته، فبدأ بعد سماع صوتها محاولة فتح عينيه لكنه لم يستطع غير فتح عين واحدة بعناء ولم تُفتح الأخرى بسبب التورم والكدمات التي أصابتها، لهذا لم يكن قادراً على التحدث معها إلا من خلال تحريك أصابع يده على الشرشف حيث أعطاها الاسم ورقم هاتف منزلهم وكان أسمه حسين.

كانت عيناه بنية اللون متلألئة وبراقة وفي نفس الوقت تعكس براءته وأمله أيضا وهو بين الموت والحياة، ورغم جراحه البليغة وشفاهه المتورمة حاول أن يبتسم لكي يُعبّر لنا عن أمتنانه لنا والتعرف على الأشخاص الذين كانوا يتابعون حالته الصحية ليل نهار.

أخبرنا عائلته وأوصيناهم حينما أتوا ألا يبدو معرفة به وأن يرونه عن بعد لأن أحد جلادي النظام يقف قرب رأسه كالطير المفترس بانتظار الحصول منه على معلومات عن زملائه

الآخرين ليقوموا باعتقالهم. وهكذا جاءت الأم ووقفت إلى جانب سرير مريض آخر فاقد للوعي كان بجوار سرير ابنها، وأخذت تبكي بهدوء كالمطر المنهمر على مشهد الموت البطيء لولدها، دون أن تستطيع الاقتراب منه.

في تلك اللحظات كان قلبها يتلهف لاحتضان ولدها الفتى ومسح قطرات العرق من على جبينه المحموم وأن تُقبّل جبينه لتشعره بدفء الحياة. ربما فكرت ببريق ليالي سهره أو شغبه الجميل أو كانت تفكر بأمنيات هذا الفتى الذكي الشجاع، الذي بدأت شفاهه ترتجف كما لو كان يهمس أو ربما يدعو. أما نحن فكل الذي شاهدناه وقتها أن عيناه كانت مملوءة بالأمنيات وأنه كلما نظرت الأم من بعيد إلى ولدها وهي تبكي كان عليها ألا تقترب منه. نحن كنا ننظر إلى كليهما أيضا وكنا نحاول أن نخفي دموعنا في محيط جفوننا لأن جواسيس خميني كانوا هناك بالمرصاد.

في هذه اللحظات فقد حسين وعيه بسبب النزف الداخلي الشديد وغدا على شفير الموت، ولم يعرف قط أن والدته قد حضرت. بقي على هذه الحال ثلاثة أيام ثم ودع الحياة بهذا الكمّ من الألم والعذاب.

قصة شكر.. نموذج للمجاهدات

بعد اعتقال شكر قلقنا عليها كثيراً، وكانت والدتها هائمة على وجهها تبحث عنها، لكن أحدا في أجهزة النظام القمعية المختلفة لم يخبرنا عن مكانها وحالها. وكانوا يعلنون كل يوم في وسائل الأعلام السمعية والمرئية أسماء عشرات بل مئات الذين تم إعدامهم، أو كانوا يقومون بنشر صورهم في الصحف ويطلبون من أهلهم الحضور للتعرّف عليهم وإعطاء أسمائهم كي يستلموا جثث أبنائهم. يعني أنهم لم يكونوا يعرفون حتى اسم الواحد منهم عند إعدامهم.

كانت شكر غير معروفة في المستشفى، غير أن زملاءها قالوا أن أفراد الحرس المسلحين جرّوها على الأرض جرا لأنها قاومتهم، فقاموا بخلع حجابها وسحبها بأيديهم من شعرها

أمام الأنظار، ولم يتورعوا عن ضربها وشتمها أيضا ثم دفعها إلى داخل سيارتهم الواقفة.. وأخذها معهم.

ومع ذلك، فإن أفراد الحرس وأجهزة أخرى تابعة للنظام أخذوا ينفون خبر اعتقالها، بينما استمرت والدتها في البحث عنها في السجون أو المقابر أو بين صفحات الجرائد كي تجد لها أثراً لكنها لم تُوَفّق، إلى أن علمنا بعد شهر تقريباً أن شكر في سجن (إيفين) قيد التحقيق وهذا يعني أنها تحت التعذيب. ولأنهم لم يمتلكوا أي دليل أو مستند يدينها قاموا بتعذيبها، وكانوا يريدون أن ينتزعوا منها أي اعترافات لكي يلفقوا لها ما يروق لهم من التهم.

لكن شكر هذه الممرضة العطوف والمسؤولة قاومتهم وكانت ترد عليهم بالقول: أنا بمساعدتي للجرحى لم أفعل أي شيء سوى إنجاز عملي المنوط بي. أنتم الذين يجب أن تحاكموا، لماذا فعلتم بهم هذا؟ أنتم الذين تستحقون أن يصدر حكم الإعدام بحقكم لكي يرتاح الشعب من شروركم، أنتم قتلة والآن تحاكموننا؟! هذا الكلام كان قد كشف عنه النقاب أحد الحراس الذين يعملون في سجن (إيفين) رداً على سؤال لأم شكر وهي تسعى لإثبات براءة ابنتها مما يحاولون تلفيقه ضدها من اتهامات. وعلى الرغم من مقاومة شكر وعدم ارتكابها أية جريمة إلا أنه حُكِم عليها بالسجن لمدة خمسة عشر عاما بتهمة مساعدة جرحى مجاهدي خلق، وكان حكماً جائرا أثبت الزمن أنهم لم ينفذوه.

حينما سُجنتُ معها فيما بعد أخبرتني شكر بظروفهن أثناء فترة التحقيق، وكيف أنه لم يكن لديهن حمام طوال عدة شهور، وكيف كانوا يُقاسون الجوع لقلة الطعام المقدم لهن، حيث كان يُقتصر على حبات معدودة من الفاصوليا مع عدة ملاعق من الأرز. أي ملعقة فاصوليا واحدة لثمانية أشخاص أو عدة ملاعق من الرز. قالت شكر كنا نقسم الفاصوليا بالعدّ أي بحساب حباتها. مثلاً الوجبة الغذائية لشخص واحد أربع حبات من الفاصوليا!

بهذه الوسائل الضاغطة حاولوا هزيمة السجينات، لهذا أصيبت شكر وعدد من النساء الأخريات بالأمراض التي لم يتمكنوا فيما بعد التخلص منها مع الزمن، فقد عانت شكر

مرات عدة من نزيف في المعدة وكانت كلما تتناول أي طعام تتقيؤه، حتى غدت نحيفة جداً بسبب قسوة الحياة والضغوط التي واجهتها وزميلاتها.

منذ 21 حزيران حتى 11 تشرين الثاني سنة 1981 وهو اليوم الذي اعتقلتُ فيه، كانت ظروفي سيئة بسبب اختفائي وعدم استطاعتي العودة إلى بيتنا، لكنني كنت مسرورة بمهنتي إذ عملت بمساعدة زملائي وأصدقائي في المستشفيات الخاصة لفترتين صباحية ومسائية، حتى لا أضطر للذهاب إلى منزلنا أو بعض الأقارب، لاسيما بعد أن هاجموا منزلنا عدة مرات واعتقلوا أختي بدلا مني وأخذوها معهم إلى أن استطاع والدي بعد مساع عديدة دامت شهورًا إنقاذها من قبضة قوات الحرس. هذه الأجواء القاسية أرغمتني في بعض الأوقات التي لا أعمل فيها بالمستشفى إلى قضاء الساعات الطويلة في التجوّل بالشوارع المزدحمة مع محمل الشراء ومشاهدة واجهات المحلات، لأنه لم يكن هناك أي مكان آمن لي.

في هذه الظروف بدأنا العمل على شكل فرق تضم الواحدة منها عدة أخوات. كنا أنا وتهمينة وعزت مع بعضنا في فريق واحد، وكنا نعمل كما كان الحال في السابق لدعم مساعدة المنظمة وجمع المساعدات الشعبية، مع العمل المستمر على فضح خميني وملاليه، وكنا نعتقد دوما أنه كلما كان العدو يقتل أكثر فإن ذلك يدلّ على صحة توجهنا الذي اخترناه، وكان يزيدنا تصميما على السير في هذا النهج النضالي ويشعرنا بأن مسؤولية كل شهيد وسجين تقع على أكتافنا.

امضينا خمسة أشهرعلى هذا المنوال وفي هذه الأثناء تم اعتقال الكثير من زميلاتنها وصديقاتنا في العمل والدراسة (أكرم بهادر)، (طوبى رجبى ثاني)، (صادق اقمشه)،(درويان)، (فهيمة مير أحمدي) و(ناهيد تحصيلي). وكنا نسمع كل يوم عن استشهاد واعتقال العديدين، فقط الوحيدة التي لم يجر إعدامها من هذه الأسماء المذكورة والتي بقيت في السجن آنذاك هي أكرم بهادر التي تم أعدامها بعد ذلك خلال المجازر الجماعية التي ارتكبت سنة 1988.

أما الدكتورة فهيمة مير أحمدي الطبيبة المساعدة في مستشفى سيناء، فقد استشهدت هي وزوجها إثر هجوم استهدف منزلهما، وقضى معهما أيضا طفلهما الذي لم يولد بعد. كانت فهيمه مسؤولتي لفترة ورأيتها آخر مرة قبل استشهادها في الشارع وأخبرتني في ذلك اللقاء بخبر إعدام كل من طوبى رجبي ثاني والدكتورة أقمشة والدكتورة ناهيد تحصيلي.

طوبى الأمل الوحيد لشقيقتها وشقيقها الصغيرين

كانت (طوبى) فتاة تعتمد على نفسها، فقدت والديها منذ طفولتها في كارثة زلزال، ولها شقيق وشقيقة أصغر منها يعيشان عند أقاربهما إذ تكفلوا برعايتهما، أما هي فكانت تعيش في الشمال عند أحد أقاربها إلى أن جاءت إلى طهران بعد قبولها في قسم التمريض. كانت فتاة ملتزمة بالمبادئ، كثيرة المطالعة، وغير ثرثارة.

شاهدتها يوماً جالسة على مصطبة في جانب المسبح وهي مشغولة بقراءة رسالة، ولكي أجلس بجوارها ذهبت وأغمضت عينيها من الخلف فابتلّت يداي فأدركت أنها كانت تبكي. عندئذ ندمت وشعرت بالخجل من مزاحي معها الذي لم يأت في وقت مناسب. جلست أمامها وجهاً لوجه، فسارعت رداً على سؤالي حول سبب الدموع في عينيها ومدت يدها فيما كانت عيونها ممتلئة بالدموع، وأعطتني الرسالة وهي تحاول أن تبتسم.

كانت الرسالة من شقيقتها الصغيرة وقد قالت فيها: "لكي يسمحوا لي بالذهاب إلى المدرسة لا بد لي أن أنجز كل أعمال البيت، وفي الليل عليّ رعاية الطفل الصغير لصاحب الدار بالإضافة إلى رعاية أخي الصغير والعناية به. عزيزتي إنني متعبة كثيراً، ففي الصباح أصل متأخرة إلى المدرسة، ويصيبني النعاس في الصف من شدة التعب، لحسن الحظ المعلم عالم بحالي فلا يتشدد معي إطلاقًا". وأضافت الأخت الصغيرة لـ(طوبى) قائلة في رسالتها: "نحن كلانا ننتظر أن تنهي دراستك، وتشتري غرفة صغيرة وتأخذينا عندك أستحلفك بالله إنهي دراستك بسرعة وخذينا معك".

لكن طوبى لم تستطع بعد ذلك شراء البيت لشقيقتها وشقيقها الصغيرين، غير أنها وتنفيذاً لرغبة أخيها الصغير خاطت لهما ملابس، ولتحقيق الحلم الصغير لإخوانها وأخواتها العزل والفقراء واليتامى اختارت طريق مجاهدي خلق. وسرعان ما كان مصيرها الإعدام على أيدي جلادي خميني بعد أن جرى التبليغ عنها من قبل عملاء النظام العاملين في المستشفى. هل كانت شقيقتها الصغيرة تعلم بما جرى، أم ما تزال تأمل وتنتظر أن تشتري أختها الكبيرة غرفة صغيرة في طهران وتأخذهم عندها؟.

سيطرت هذه الوضعية على ذهني وكانت دموعي تنهار في الوقت الذي كانت فيه الدكتورة فهيمة قلقة ومتأثرة لكنها كانت تحاول السيطرة على نفسها فقالت: إن ثمن حرية شعبنا هذه الدماء، ولذا يجب علينا أن نكون مستعدين لذلك.

كانت الدكتورة فهيمة مير أحمدي الطبيبة المساعدة المثابرة في قسم الطوارئ بمستشفى سيناء التي هي الأخرى سرعان ما استشهدت بعد ذلك بطفلها الذي لم يولد أبداً. هن أخواتي اللواتي لن أنساهن على الإطلاق، ولن أنسى وقفتهن في وجه خميني الوحش وقولهن له (لا)، وكن يشاهدن مشاعل حب الشعب تلتهب على الدوام في مجاهدي خلق وأهدافهم الإنسانية، وقد حافظن بدمائهن على إضاءة شعلة الثورة، ولا أستطيع أن أتصور المصير المحتوم الذي ينتظره المجتمع الإيراني كله لولا تضحياتهم.

من الشارع إلى الزنازين لمجرد شبهة!

في أحد أيام الخريف، وتحديداً في 7 تشرين الثاني 1981، ذهبنت ومعي تهيمنة إلى منزل عائلة شكر للسؤال عن حالها، وعند عودتنا نزلنا من سيارة الأجرة في ساحة الكندي فشعرنا فورها بعدم الأمان لأن الشوارع كانت خالية، فدخلنا أحد محلات بيع الأقمشة حيث وجدنا فيه إمرأتين تحتضن إحداهن طفلها الصغير، وفجأة وقفت دراجة أمام المحل وترجل منها مسلحان ثم دخلا المحل وشهرا في وجوهنا السلاح وقالا لنا هيا وأركبا! بدأت المرأتان بالبكاء والتوسل لهما بينما كان الطفل الصغير خائفاً جداً. حاولت أن أجد وسيلة مناسبة

للهروب لكنني لم أتمكن من ذلك نظرا لوجود مسلحين آخرين خارج المحل قاما باعتقالي، وعندها اعتقدت للوهلة الأولى أنهم عرفوني، إلا أنني سرعان ما أدركت أنهم حتى وهم يسيرون في الشارع يقومون باعتقال أي مشتبه به ممن تتراوح أعمارهم بين (15-30) سنة، ثم يجري تحديد جريمته فيما بعد.

اعتقل المسلحون الإمرأتين أيضا فبدأتا بالبكاء والتوسل داخل السيارة التي وضعونا فيها، ولكوني لم أبك منذ البداية وكنت أتحين الفرصة للهرب قاموا بتقييد يدي وقال أحدهم لي سآخذك معي وسأوقظك من غيبوبتك حتى تفهمي جيداً ماذا فعل حبيبك مسعود، فأجبته: تستحق أن تكون كلب مسعود. إلى أي حد أغضبك مسعود حتى تودّ إخماد ثورة غضبك بتعذيبي، من أنت لتذكر اسم مسعود بفمك القذر؟ ردّ علي بكلمات بذيئة ورفع يده ليضربني وهددني وتوعدني وأنا بدوري شتمته وقلت له: " أنت أحمق، تشتمني أمام الذين قمتم باعتقالهم أنتم تجيدون الكشف عما يكمن في دواخلكم ". في هذه الأثناء قال حارس آخر كان يبدو أنه مسؤولهم أسكتا أنتما الإثنين. ومع أنني لم أردّ عليه إلا أنه واصل توجيه الكلام قائلا ستدفعين ثمن ثرثرتك. ثم أخذونا إلى مقر لهم في شارع الحرية قرب ساحة الكندي ووضعونا داخل غرفة فارغة ومظلمة تحت الأرض. ولما جاء الليل شعرت بالخوف بسبب الوحدة، كان خوفاً مبهماً من الموت المحتمل، فبدأت أفكر بكيفية موت الإنسان. صحيح أنني قد شاهدت بعيني موت العديد من مرضاي لكنني لم أفكر في موتي أنا. وفجأة فتح باب الغرفة وجاء الحراس مرة أخرى ليأخذونا مرة أخرى في سيارة فعادت الإمرأتان إلى البكاء، إلا أنه تم إطلاق سراحهن بعد ذلك وكان واضحا أنهم حققوا معهن وأن كل منهما قد أعطت عنوان بيتها.

عندما كانت سيارة قوات الحرس تعبر من منطقة سكننا، شاهدت زقاقنا من بعيد وتخيلت والدتي بماذا كانت تفكر الآن وماذا تفعل؟ ربما لا تتصور حالي والوضع الذي أنا فيه لكنها سوف تفهم بسرعة أنني لم أعد موجودة، وستصبح مثل الآخرين هائمة على وجهها بين السجون والمقابر. أتمنى لو استطيع أن أخبرها إلى أين أنا ذاهبة. وبعد أن أصبحت وحيدة وأحكموا وثاق عيوني، وألقوني داخل السيارة مع كمّ من اللكمات والركلات والشتم،

ثم ساروا باتجاه أدركت فيما بعد أنه سجن إيفين. كنت مضطربة جداً، وأُسائل نفسي إلى أين يأخذونني؟ ما الذي سيفعلونه بي؟ إذا أخذوني وراء تهيمنة ماذا يجب أن أقول، وإذا سألوني أين كنت طوال هذه المدة في أي بيت أو مكان ماذا يجب أن أقول؟ و.... ودارت في ذهني أسئلة كثيرة أرهقتني حتى وصلنا أخيرا فأخذوني إلى الشعبة الثانية من سجن إيفين، وأجلسوني على كرسي ووجهي موجه نحو الحائط في زاوية غرفة فارغة، تفحصتُ المكان وتذكرت تهيمنة، هل ستعلم بأعتقالي؟ ماذا سيفعلوا بها لأنها كانت هي أيضا مشردة في الشوارع ومن المحتمل أن يكونوا قد اعتقلوها بنفس هذا الأسلوب الذي يعتمده النظام. كنت أتمنى كثيراً لو أنني أستطيع إبلاغها بألا تخرج إلى الشارع ولكن عقلي لا يستوعب ذلك، وأعود للتساؤل ماذا يجب أن أفعل وأنا في قبضة هؤلاء الوحوش الذين لا يهمهم أي شيء؟

الفصل الثاني

في سجن إيفين

أول وجبة تحقيق

في الفترة التي اعتُقلت فيها سمعت أصوات صرخات مختنقة ومبهمة تأتي من كل زاوية، كما سمعت صوتًا منتظمًا كصوت عصى تطرق بشدة على سجادة، إنه مثل الصوت الذي كنت أسمعه أثناء ترتيب البيت في عيد نوروز حيث كانت والدتي تعلق السجاد وتضربه بالعصى بكل قوة لتخرج منه الغبار والتراب.

كنت أشعر أن قلبي يكاد يخرج من صدري وتهيّأت أنني أواجه عقوبة الإعدام، خصوصا أنهم قد تعرّفوا على وضعي وأخرجوا اسمي وصفاتي وعلموا أني الممرضة الهاربة من مستشفى سينا. كنت على يقين أنهم سيعذبوني على الأقل، لاسيما وأنهم وجدوا في حقيبتي قائمة بأسماء الأشخاص الذين كانوا يقدمون مساعدات مالية لنا، كما عثروا على بيان صادر عن مجاهدي خلق مكتوب بخط اليد من حسن الحظ، ويتضمن الأسماء الأُوَل لأشخاص دون ذكر أسماء عائلة كل منهم، فكانوا لا يستطيعون معرفة أكثر من ذلك.

وعلى النقيض مما كنت أتوقع، جاء أحدهم وجلس أمامي وقرّب رأسه كثيرا مني وكان يتنفّس في وجهي نَفَسا مقززا. كانت عيناي ما زالتا معصوبتين فأرجعت رأسي إلى الخلف وقلت ماذا تريد؟ قال بكل أدب " إنتبهي، نحن نعلم كل شيء ولا حاجة إلى أن تؤذي نفسك وتؤذينا من الأفضل والأحسن أن تقولي كل شيء وتخلصي نفسك نحن لا نريد أن نؤذيك أنت امرأة جيدة ونحن نعرف هذا، أنا أحاول أن أساعدك". كان يظن الأحمق أنه يستطيع بهذا الأسلوب من الكلام أن يخدعني، متصورا أنه يتعامل مع طفل صغير. في هذه الأثناء كنت أحاول أن أركز ذهني ولا أتكلم كثيراً. قلت كيف يجب علي أن أقول شيئاً أنتم تعلمونه. وإذا كنتم تعلمون ذلك لماذا تريدون مني أن أقوله؟ كنت أتفوّه معه بنفس أسلوبه ومفرداته، وأُظهر له أنني إنسانة عادية غير سياسية. كنت آمل أن أنجح في ذلك ولو لفترة من الوقت، حتى تفهم تهيمنة والآخرون أني اعتُقلت فيأخذوا حذرهم ويبتعدوا عن الأماكن التي أعرفها.

ثم سألني الرجل نفسه: هل تعرفين شهناز؟ وفي الحقيقة أنني كنت أعرفها لأنها كانت مسؤولة مجموعتي قبل عدة أشهر، وهي ممرضة في مستشفى البنك الوطني في طهران وقد اعتقلت قبل شهرين مع فيروزه، ومع ذلك أجبت: أنا لا أعرف إنسانة بهذه الأوصاف. فردّ علي: لكنها تعرفك، قلت: يعرفني أشخاص كثيرون، ربما رأتني في مكان ما، لكن ليس لدي أي زميلة عمل بهذا الاسم. فقال "جيد إصبري" وذهب سريعا ثم عاد بعد عدة دقائق وقال:عندما أقول لكِ افتحي العصبة لا تنظري إلى أي جهة سوى أمامك، وقد كان واقفًا خلفي لأنه لم يكن يريدني أن أرى وجهه كي لا أتعرف عليه. انتبهت أثناء التحقيق إلى هذا، إذ كان المحققون يخشون من التعرف عليهم ولذلك كانوا يضعون على وجوههم أقنعة من القماش الأبيض فيها فتحتان للعيون عندما يواجهوننا ولا ينزعونها حتى عندما تكون عيوننا معصوبة. حينما فتحت العصبة عن عيني وجدت شهناز واقفة أمامي وهي ترتدي عباءة سوداء وكانت تنظر إلي ببرودة وضعف. حاولت ألا أنفعل وسألتها بلهجة طبيعية أنتِ شهناز؟ ماذا تفعلي هنا؟ ثم أومأت لها بإشارة، لكنها على عكس ما كنت انتظرفاجأتني بالقول: لا، هنكامه أنا قلت كل شيء ولا حاجة أن تشيري إلي! نزلت كلماتها هذه على

رأسي كمطرقة كبيرة فأدركت أنها تخلت عني. كانت لحظة مؤلمة جداً ولم أكن مستعدة كي أواجه مثل هذا الشيء أمام المحققين فأصابني الدوار وجف حلقي، لكني عدت ثانية إلى وعيي وحاولت أن أحافظ على هدوء أعصابي وأركّز ذهني في محاولة للتذكر فيما لو كان لديها أية معلومات، فأيقنت أنها لا تعرف شيئا عني وأنني لم أرها منذ سنة تقريباً. إنها تقول كلاماً فارغاً وتريد أن تلوي ذراعي، لهذا أنكرت أي علاقة لها بي وقلت لها: أنتِ ما الذي تعلمينه وما الذي قلتيه، أنا ليس لدي شيء ولا أي كلام مع أولئك الذين أعدموا كل أصدقائي. من الأفضل أن تذهبي إلى عملك.

قلت هذا متعمدة طرح الموضوع بصيغة تبدو أمامهم وكأنها أحقاد فردية. فعاد المحقق إلى الحديث معي متسائلا: مَن مِن الأشخاص الذين اعتقلوا موجود هنا الآن؟ كان يريد أن يشدّ انتباهي من ناحية وأن يضعف معنوياتي من ناحية أخرى. قلت ليكن من يكن موجودًا هنا، ما علاقتي أنا بذلك؟ وسريعا قال تهيمنة أيضًا موجودة هنا. هبط قلبي من مفاجأة هذا الخبر، وتمتمت مع نفسي تهيمنة هنا.. من أين جاؤوا بها؟ لم تكن لدي أية معلومة عنها على الإطلاق وغاب عن ذهني لحظتها أننا كنا نعمل معا في مستشفى سينا، فأجبت: لم أرى تهيمنة منذ شهور ولا اعلم أين هي.

تجربة أول تعذيب

عندما رأى المحقق أنه لا جدوى من الحوار معي أخذ شهناز بعد أن قيدني على السرير مقلوبة على وجهي، وأحكم وثاقي إلى درجة أنني لم أعد أستطيع التقلب ولا تحريك قدمي. ثم جلس حارس آخر على ظهري وألقوا بطانية على وجهي أيضًا، وهي تجربة طالما تخيّلتها سابقا وكنت بانتظار أن تحدث معي. وفجأة صعقني تيار قوي مثل الكهرباء، فهز كل جسدي وأعصابي من الألم المخيف، تذكرت لحظتها صوت تلك العصى الذي يطرق على السجادة المعلقة بشيء.

كرروا الضرب بصعقات أخرى لم أعد أدري عددها، لكنني كنت أصرخ من الألم ثم فكوا وثاقي من السرير وكنت قد أصبت بالإنهاك كما لو كنت قد حفرت في جبل لعدة ساعات.

قال المحقق لا أريد أن أعزّرك (أي أُنزِل عليك العقوبة الشرعية) لتعترفي من تلقاء نفسك، وركزوا على محاولة انتزاع المعلومات مني بأسلوب الترغيب والترهيب حتى فقدت حساب الوقت وأصبحت لاأعرف أية ساعة من الليل. أجلسني ثانية وقال: في أي وقت أقول لكِ افتحي العصبة عن عينيك إفعلي ذلك ولكن بشرط ألا تنطقي بكلمة واحدة ويجب ألا يخرج صوتك أيضا. وبعد لحظات ضرب رأسي بالقلم وهمس في أذني قائلاً افتحي العصبة، ولما فتحتها فوجئت برؤية تهيمنة واقفة أمامي معصوبة العينين بنفس ملابسها المعتادة التي كانت عبارة عن معطف مخطط بمربعات بلون خليط من البنّي والكريمي. فهمت أنها قد اعتقلت وكأنما قد انطبق العالم على رأسي، كان رأسي يؤلمني ألماً شديداً، وقد أنهكني التعب كأنما لم أنم مئة عام. وتساءلت بيني وبين نفسي كيف اعتُقِلت؟ من أين عرفوا علاقتي بها؟ في هذه الأثناء عاجلني المحقق قائلا إعصبي عينيك ثانية.. وأخذوها من أمامي.

في الحقيقة لم تنتبه تهيمنة لوجودي وهي واقفة أمامي. أما الآن فماذا علي مجدداً أن أفعل؟ وإذا سألوا تهيمنة وكان جوابها مناقضاً لكلامي حينذاك سيتعذب كلانا. يـــا إلهي، كم أتمنى أن أتحدث مع تهيمنة بأي شكل، كان قلبي مضطرباً جداً وكنت دائمة التفكير والدعاء.
لا أدري لأي سبب لم يكمل المحقق مهمته تلك الليلة، ولكن هذا ساعدني كثيراً، فقد أخذوني بعدها إلى غرفة فيها عدد كبير من الأخوات يجلسن على الأرض والبعض منهن نائمات وأقدام عدد منهن ملفوفة بالضمادات حتى الركب، وكان الدم متجمدا تحت الضماد. كان واضحًا أنهن غائبات عن الوعي ولم تُضمد جروحهن لعدة أيام وقد ملأت رائحة الدم والعرق الغرفة، ولما كان عدد منهن جريحات ومعصوبات الأعين فقد تساءلن بأنين: متى ستغيرون ضماداتنا؟ وردّت الحارسات: ارفعن رؤوسكن.

كانت هناك حارستان أمام الباب أيضًا، فتحتُ العصبة عن عيني وشرعن بتفتيش جسدي، فسألت إحداهن ما الذي أصاب أقدام أولئك النسوة، وكنت اعتقد أن الحرس قد أطلقوا عليهن الرصاص أثناء عملية الاعتقال، ولم أكن أتصور أبداً أن جلادي خميني قد مزقوا أقدامهن بضربات الكيبل بهذا الشكل فنظرت إحدى الحارسات إلي بابتسامة مليئة بالسخرية وظلّت شاخصة في نظرة تموج بالبرودة والقسوة معا وتبدو بلا قلب. يــا إلهي، كيف حوّل خميني صورة الإنسان إلى هذه الصورة البشعة؟.

وفي الحقيقة كان هذا المكان غرفة انتظار قُبيل البدء في التحقيق، وكان مجرد الحضور إلى هذه الغرفة يُعتبر تعذيبا نفسيا شديدا ومؤلما أكثر من التعذيب المادي. جلستُ في زاوية وكنت قلقة ومضطربة.

رتبتُ العصبة الموجودة فوق عينيّ بحيث أستطيع أن أرى من تحتها الأشخاص، ثم سمعت صوت فتح الباب وجاءت نفس كلتا الحارستين وكل منهما كالغراب الأسود أو بتعبير أدق مثل كيس النفايات الأسود اللون.، وكانتا تسحبان وراءهما إحدى الأخوات التي انحنى رأسها على صدرها فأدخلنها ثم رمينها وسط الغرفة فوق الأخوات الأخريات وذهبن فأرتفع أنين النساء الموجودات.، كانت الغرفة ممتلئة، وكان عليها أن تجد لنفسها مكانا جديداً للجلوس، فأفسح لها الأخوات مكاناً بينهم فاستلقت وكان رأسها من جهتي.، وعلى الفور انتابها الغثيان ثم تقيأت. حاولت الاقتراب منها متذرعة بتمديد أقدامي وفسح المكان لأني كنت أخشى أن يكون أحد الحراس موجوداً داخل الغرفة. مسحت بيدي على رأسها بهدوء وسألتها: ما الذي جعلك بهذه الحالة؟ ولما أدارت رأسها نحوي لتراني عرفتها فوراً، لقد كانت مهناز إحدى الطالبات الجامعيات اللواتي كنت أذهب معهن إلى الجبل، وكنت أراها كثيراً في لجنة الطلاب المؤيدين لمجاهدي خلق فقلت: عزيزتي مهناز أنا هنكامة، لماذا أصبحت بهذا الشكل؟ ماذا فعلوا بك؟ قالت لقد مزقوا قدماي بالكيبل ومن المحتمل أن كليتي متوقفة إذ أصبح إدراري دماً وأظن أن هذا هو سبب التقيؤ. بدأت أبكي بعد أن رأيتها بهذه الحالة ولا أستطيع أن أفعل لها أي شيء قط.

الغريب أنها بدأت هي بتهدئتي ومع أنها كانت تتحدث بصعوبة وبصوت ضعيف يرتجف، إلا أنها قالت لي: هنكامة هذا أول الطريق فمن المحتمل أن أرحل لأن الحكم الذي ينتظرني هو الإعدام. أما أنت فيجب أن تكوني قوية وتستمري في الطريق، قولي للجميع هذا الكلام ! كنت أداعب شعرها وأنا أبكي حتى وصلتُ إلى حد لم أحتمل فيه فصرخت ليأتي أي واحد، ولما وجدوها في حالة احتضارأعطوها مضادا حيويا كي يعمل على تنويمها.

مرة أخرى جاءت كلتا الحارستان ومعهما سجينة جديدة ومررن من أمامي. اختلست النظر من تحت العصبة الموجودة فوق عيني فعرفتها. إنها تهيمنة، فهبط قلبي وتعقبتهن لأرى إلى أي جهة من الغرفة سيأخذنها، ففكرت مع نفسي هل مرّروها من أمامي متعمدين كي يروا هل سأتصل بها أم أنهم لم ينتبهوا لذلك بسبب الزحمة والفوضى؟ وعندما خرجت الحارستان قلت لنفسي على أية حال ربما تكون هذه هي الفرصة الوحيدة للتواصل معها التي لدي وبحجة تمديد أقدامي وتغيير مكاني اقتربت منها فوضعت رأسي إلى جانب قدميها وهي كانت جالسة، ناديتها تهيمنة.. تهيمنة. التفتت ورأتني من تحت العصبة التي كانت على عيونها وسألت متهمسًا هل أنت هنكامة؟، قلت نعم وأخبرتها خلال عدة لحظات عن كل شيء بصدد الاعتقال والمعلومات التي لديهم عني ومن بين ذلك أخبرتها عن انهيار شهناز وأكدت لها أني لم أعترف بشيء عنها وعن الأخريات قط، وأنهم لا يعرفون شيئاً، وأن كل معلوماتهم هي نفسها التي أدلت بها شهناز لهم وهي ليست مهمة أيضًا، وقلت لها أحضروك مقيدة العينين لكي أراك، من أين علموا علاقتي بك؟ قالت لا توجد أي علاقة قط، فقط أخرجوا أسماءكن التي كتبتُها بالرموز ولا يعرف أي شخص ما هي. لهذا انتبهي أنت أيضا وإحذري أن تُخدعي، أنا لم أقل شيئاً قط ولأن اسمك كان عندي أيضا أدركوا ذلك، وقد قلت أن هنكامة كانت زميلتي في المستشفى فقط وأحياناً كنت أعطيها البيان وكل شيء عندها أنا أعطيته لها وليس لديها أي نشاط أخر قط، وكانت الحقيقة أن تهيمنة جعلت نفسها درعاً واقياً لمحنة كل الأشخاص الذين كانوا يناصرون ويساندون المنظمة، وأنا أيضا كنت زميلتها في نفس المجموعة لكنها كانت قد عرفتني فرداً عادياً ولم تترك أي شخص من الأشخاص الذين كانوا على علاقة بها أن ينكشفوا ويتعقبهم النظام، وقد اعتقلت تهيمنة

بعد ساعة واحدة من اعتقالي في شارع (أمير آباد أو كيشا) بنفس أسلوب المباغتة الذي أخذوني به واعتقلوني.

لقائي الأخير مع تهمينة

في الصباح جاء الحرس وأخرج ثلاث نساء من الغرفة، كنا أنا وتهيمنة وامرأة أخرى، كانت عيوننا معصوبة. أمسك الحرس بطرف عصى في يده وأعطى طرفها الآخر للسجينة الأولى وقال امسكيها، وضعت تهيمنة يدها فوق كتف تلك السجينة، وأنا وضعت يدي على كتف تهيمنة وسرنا، حيث أدركت فيما بعد أنهم نقلونا إلى الردهة 209 العائد إلى الجيش لأن قوات الجيش هي التي اعتقلتنا، بينما الأشخاص الذين يعتقلون من قبل اللجان يجري التحقيق معهم في أماكن مختلفة من سجن إيفين وهي التي يسمونها بالشعبة- أي الفرع-. طبعا ليس هناك فرق بين ممارسات كليهما في المغزى، لكن هذه الازدواجية كانت تعكس الصراعات والنزاعات الفئوية بينهم، عدا عن أن أفراد الجيش كانوا يبدون في الظاهر أفرادًا متعلمين فمنهم من كانوا طلاباً جامعيين، فكانوا يحققون ويعذّبون على أسس أفضل وأقل تعقيداً، مما كان يفعل أفراد اللجان الذين لم يكتفوا بتعذيب السجين أو حتى قتله، وهم يحاولون انتزاع المعلومات منهم، بل كانوا يستعينون في هذا العمل بأفراد من جلادي شرطة الشاه السرية (السافاك) للاستفادة من تجاربهم في عمليات استجواب السجين وانتزاع الاعترافات منه بوسائل التعذيب المختلفة. وهكذا يكون نظام خميني قد "تفوّق" على الشاه نفسه وسائر الدكتاتوريين الآخرين عندما أصبح يصنع من الطلاب الجامعيين معذِّبين وجلادين أيضا.

بعد أن وضعتُ يدي على كتف تهيمنة وتحركنا، كنت أشعر أنها المرة الأخيرة التي ألمسها فيها. كان هذا الشعور يقلقني بشدة وجعلني قليلة الصبر، وبصورة عفوية ضغطت على كتفها بهدوء، ويبدو أنها أدركت شعوري هذا فوضعت يدها فوق يدي وأمسكت بها فشعرت أنها شملتني بلطفها، وكان هذا لقاؤنا الأخير حيث تم إبعادنا عن بعضنا منذ أن أدخلونا الردهة 209 وأخذوا كل واحدة منا باتجاه. أخذوني داخل غرفة وتركوني لوحدي، وكانوا

قد وضعوا على الطاولة التي أمامي كل المنشورات والوثائق التي أخذوها مني، وقد رأيتها من تحت العصبة الموجودة على عيني ولكنني كنت لا أستطيع أن أفعل شيئًا اعتقادا مني أنهم وضعوني تحت المراقبة بالتدريج. وبحذر شديد رفعت العصبة قليلاً قليلاً إلى الأعلى وتفحصت حولي يميناً وشمالاً فلم أجد أحدا منهم في الظاهر.

تفحصت مستنداتي ووثائقي وكنت أريد أن أبحث داخل كل الأوراق الأخرى لعلي أجد اسماً أو أثراً لأفراد محددين فآخذها، ولكن الغريب أنه لم تكن تلك التي أبحث عنها موجودة، ولم يسألني أحد عنها، وأعتقد أنهم قد أضاعوها، وهي الوثيقة التي هددوني بها كثيرًا في الليلة الأولى بعد اعتقالي لكنهم كانوا على الأغلب قد أضاعوها جراء الفوضى، وربما كان هناك شخص ما يصادرها ويتلفها. أقول ذلك بعد ما نُقِلت إلى الردهة الجماعي وبعد أن انتبهت إلى وجود عدة أشخاص آخرين قد فقدوا أهم الوثائق الموجودة في ملفاتهم مثلي. والتفسير الممكن الوحيد لذلك هو أن أنصارًا للمجاهدين قد اخترقوا صفوف أفراد قوات الحرس والمحققين وهم الذين يقومون بذلك.على أية حال وبعد فترة جاء المحقق وهو يضع ذلك النقاب على وجهه، وبدأ تحقيقه معي فكررت نفس إفادتي السابقة، وبعد ذلك استدعوني مرتين أو ثلاثا إلى التحقيق وكانوا يطرحون علي نفس الأسئلة ولكن بصيغ أخرى، وحسب تعبيرهم أرادوا وبتعقيداتهم الحمقاء أن يكشفوا التناقض في كلامي، لكني كنت دائماً أردد على الدوام الذي قلته حتى لا أنساه ولا يتناقضا مع ما قلته سابقا.، عدا عن أن تهيمنة كانت قد تبنت مسؤولية جميع ما كانوا يعتبرونه جريمة من وجهة نظرهم وقد استطاعت بذلك إفلاتنا من التجريم. ولهذا السبب أعدمت تهمينة. أما في فترة التحقيق فكانوا يتعاملون معي وكأنه لم يثبت أي شيء ضدي وأنني مجرد امرأة عادية تركت عملها في المستشفى خوفًا من الاعتقال.

كان الردهة 209 يضم عدة ردهات وكان في جهة من كل ردهة زنزانات انفرادية مرتبة بصف واحد على شكل قطار. أخذوني إلى أحد هذه الردهات ثم إلى إحدى الزنزانات وكان لدى الحارس عصا صغيرة في يده أعطاني أحد طرفيها، كانوا يرشدون النساء السجينات إلى زنزاناتهن بهذا الشكل، وكان سبب استفادتهم من العصا مراعاة للحدود الشرعية، أي

كانوا يريدون أن يصوروا لنا ـ دجلا ـ أنهم يراعون الحُرُمات ولا يريدون لمس المرأة.، كانت هذه المحاولة في وقت لم يكونوا يتورعون فيه عن أي انتهاك لحرمة النساء وارتكاب أية رذيلة بحقهن، فكانوا يعدمون الفتيات بعد اغتصابهن، وقد شاهدت بعيني بعض الحالات وكيف كانوا يتعاملون معهن بأقذر الأساليب والتصرفات.، كما يعرضونهن لأبشع صور الاغتصاب الجنسي بغية دفعهن نحو الانهيار.

الزنزانة.. عذاب في عذاب

حينما دخلت الزنزانة رأيت أن مساحتها تقارب (2.5×2) متر، ويوجد فيها خمس سجينات أخريات، مع أن هذه المساحة لا تسع ألا لسجينة واحدة لكنهم حبسوا فيها ستة سجينات. وكان فيها مغسلة معدنية ومرحاض غربي. وهذا الأخير كان أكثر ما يعانين منه، إذ أن استعمال المرحاض كان أمام الجميع.، أما المشكلة الأخرى فقد كانت عند النوم لأن المكان لا يسع كأقصى حد إلا لخمس سجينات كن في الأصل موجودات في الزنزانة.

أما زميلاتي في هذه الزنزانة الجديدة فكانت إحداهن تدعى مليحة، وهي طالبة جامعية في السنة الخامسة لكلية الطب وقد رأيتها قبل ذلك في جمع من الطلاب والكادر الطبي المناصرين لمجاهدينخلق وكنت أعرفها، ولكن حسب عادات السجن لم تُعرّف بنفسها، أنا أيضا لم أُعرّف بنفسي حتى تتضح الظروف والأوضاع، لأنها لا تزال تحت التحقيق وقد عُذبت بعنف. أما الأخرى فكانت امرأة حاملاً تُدعى مهرانكيز، تم اعتقالها في خضم الحملات العشوائية التي شملت " المشتبه بهم "في الشوارع، وكانت مهرانكيز في الشهر الأخير لحملها. وبسبب وضعها الصحي فإن ظروف الزنزانة كانت صعبة جداً بالنسبة لها. ولذلك بذلنا كل مساعينا لمساعدتها بأي شكل نستطيع. وكانت هناك أيضا فتاتان يافعتان ـ نسيت اسميهما ـ تنتميان إلى منظمة فدائي الشعب الإيراني (الأكثرية) والحزب الشيوعي الإيراني (تودة) وكانتا قد اعتقلتا في ظل تلك الفوضى والازدحام. لذلك كانتا تسعيان لإطلاق سراحهما. كما وكانت هناك امرأة أخرى من شمال إيران في عمر يناهز الخمسة

وثلاثين سنة، كنا نلقبها "الأم طلعت" وقد اعتقلت بجريمة مساعدتها للمجاهدين وعلاقتها بعدد من أنصارهم.

كان وضع الزنزانة مزريًا جداً، وقد فرشنا أرضها ببطانية عسكرية، وكانت هناك أيضا بطانية أخرى أو اثنتين مقززتين من القذارة لكننا اضطررنا لفرشهما في النهار على الأرض كي نجلس عليهما بسبب برودة الطقس. وكنا ننام في الليل سوية بصورة جماعية ونتغطى بهما. ولما لم يكن ثمة من يزور السجينات نظرا لعدم معرفة أهلهن بأماكن تواجدهن، فلم يكن بحوزتهن سوى الملابس التي يرتدينها. وكانت جميع ملابسهن في الأغلب ممزقة ومتسخة بسبب التعذيب ونزف الدم، وليس هناك إمكانية لغسلها. وعلى أساس برنامج السجن كانوا يأخذون سجينات كل زنزانة مع بعضهن مرة واحدة في الأسبوع إلى زنزانة أخرى يوجد فيها حمّام. وكانوا لا يعطوننا نحن السجينات الست متسعا من الوقت أكثر من نصف ساعة فقط لكي نغسل ملابسنا ونستحم، ولكي نساعد أيضا المرأة الجريح المعذبة لأنها لم تكن قادرة لوحدها على إنجاز أعمالها وقد أعطينا هذا العمل أولوية على سائر أعمالنا. وكنا نوقف إحدانا مناوبة بجنب نافذة باب الحمام حتى لا يتلصص الحرس القذر النظرإلى داخل الحمام لأنهم كانوا يفعلون ذلك. ولهذا السبب أوقفنا إحدى السجينات طوال الوقت المحدد لكي تراقب النافذة. كانت طريقة غسل الملابس تعد معضلة بالنسبة لنا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أننا لا نملك سوى الملابس التي نرتديها. فعلى سبيل المثال إذا كنا نغسل قطعة من الملابس نرتدي الملابس التي تحتها أو نرتدي الملابس الخارجية أو نلبس المبللة، وعندما كنا نعود إلى الزنزانة ننزعها ونلف أجسادنا بالعباءة إلى أن تجف، وأحياناً كنا نترك الملابس في نفس باحة السجن حتى تجف.

في السجن تختبر المزاعم

كانت مهرانكيز موظفة تم اعتقالها في الشارع، وقد مضى عليها قيد الاعتقال عدة أسابيع دون البتّ في أمرها. أما أفراد عائلتها فكانوا لا يعلمون شيئاً عنها لذلك كانت تقضي أغلب وقتها في البكاء، مضطربة ومشوشة الفكر بسبب ما تراه، إذ كانت ترى كل واحدة من

زميلاتها في الزنزانة تستعد لجلسة التعذيب أو الإعدام. وكانت حاقدة على ممارسات رموز النظام وتقول: لم أكن أتصور يوماً أن الملالي سيفعلون كل هذا. أما الفتاتان الأخريان أي فتاة الأكثرية والحزب الشيوعي الإيراني (تودة) فكانتا تبذلان قصارى جهدهما لاستقطاب مهرانكيز إليهما. ولهذا كانتا تدليان بدلوهما وتشاركانه الرأي بكلمات رنانة. أما نحن فلم نكن على علاقة بهما ولم يكن ذلك مهماً بالنسبة لنا لأن الأوضاع كانت واضحة ومفهومة بشكل يمكن فيه لأي إنسان بسيط أن يدرك الحقيقة. ومع ذلك تعمّدت إحداهن الجدال معنا في الجوانب العقائدية، لكنا لم نكن نثق بهما ولا نتجادل معهما. لهذا ركزا أحاديثهما مع مهرانكيز حول التمسك بمواقفهما ومبادئهما. وكانتا تدعيان أن مجاهدي خلق يخافون من مجادلتهما لأنهم سيُهزَمون في هذه الحالة. ولم يطل الوضع على هذه الحالة حتى جاء الحرس في أحد الأيام إلى الزنزانة حاملا معه حكما بإطلاق سراحهما فبادرهما بالقول: هل غيرتما عقيدتكما وأسلمتما؟ سرعان ما قالتا نعم، فاستمر في أسئلته:.. وهل تصليان أيضا؟ فأجابت كلتاهما فوراً وبدون تردد بِـ «نعم»، وطلبتا منه ببكاء وتوسل أن يطلقوا سراحهما بسرعة. لحظتها شعرنا بالإشئمزاز من هذا التصرف المتخاذل، وقد انتابتنا حالة من السخرية عليهما، وكيف أنهما كانتا قبل عدة لحظات مضتا تتحدثان وتوصياننا بالتمسك بالمبادئ أمام العدو، ولكنهما الآن دون أي ضغوط ومع أن الحكم بإطلاق سراحهما قد تم إصداره أي كان بإمكانهما الخروج من السجن ودون أي تعذيب ، أي أنهما أصبحتا على أبواب الخروج من السجن دون الحاجة إلى هذه التملّقات قد تحولتا فجأة إلى مسلمتين متظاهرتين بالتدين. فتعجبت مهرانكيز كثيراً واستغربت تصرفهما بهذا الشكل، فقلت لها لا تستغربي، لقد كانتا مكابرتين بالكلام الرنان لا أكثر. ولكن هذه هي حقيقتهما لأن عقيدة كل شخص أو كيان تختبر في ساحة العمل.

أمثلة على وضع لا يُحتَمل

كانت الأوضاع الصحية والغذائية في الزنزانة سيئة جداً، إذ انقضت عدة شهور دون أن ننظف أسناننا بالفرشاة. كذلك لا يقوم أي شخص بزيارتنا نظرا لعدم علم أهالينا بمصيرنا

وما إذا كنا أحياء أم أموات حتى يأتوا لزيارتنا. وكان المساكين من أمثال أهالي شكر يفتشون عنها بين السجون المعروفة والمقابر أيضا.

حينما ذهبت إحدى النساء إلى التحقيق وجَدَت فرشاة فجلَبتها وبدأنا جميعا نغسل هذه الفرشاة بالصابون ونستعملها لتنظيف أسناننا بالتناوب. أما من الناحية الغذائية فكان الوضع سيئًا جداً خاصة بالنسبة لمهرانكيز لأنها كانت حاملاً على أعتاب الولادة. ليس لدينا أية فاكهة وكانوا يعطوننا الطعام يومياً من النافذة الصغيرة الموجودة في باب الزنزانة وكانت نوعية الطعام غير جيدة (سائل كالماء) أما الخبز فهو غير قابل للأكل كونه عجينًا غير ناضج. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار حالة مهرانكيز على سبيل المثال وكذا النساء الجريحات، فإن هذا الوضع كان مزريا جدا. ولا ندري ماذا نفعل تجاه ذلك. طلبنا حليباً وبعض المواد الغذائية الأخرى للمرضى ومهرانكيز، ولكنهم أجابونا بدل ذلك بالسب والقذف. وهكذا كنا نصارع باستمرار. وكان لاجوردي – رئيس سجين ايفين- يقول علنا وبشكل صريح: إننا نصرف ميزانية الدولة لنطعم حفنة من المنافقين؟! لماذا نبذّر هذه النقود عبثاً في الحرام لأجل أولئك الذين لن يكونوا أحياء أكثر من عدة أيام؟.

ذات ليلة أصيبت مهرانكيز بألم شديد فنقلوها إلى المستشفى خارج السجن اعتقدنا أنها بالتأكيد ستضع الجنين، وأن ذلك قد دفعهم إلى النظر في قضيتها والبت في أمرها، ولكننا استغربنا كثيراً بعد ذلك حينما رأيناها قد عادت بعد ثلاثة أيام دون أن تلد.

أخبرتنا مهرانكيز أنهم حينما نقلوها إلى المستشفى وعلمت الممرضات وسائر العاملين هناك انهم أحضروها من السجن كانوا ينجزون كل ما تطلبه منهم بعيداً عن عيون الحرس. واستطاعت بهذا الجو أن تُخبر عائلتها حتى يأتوا ويتابعوا حالتها. كانت سعيدة وأكثر جاذبية وقد جلبت معها فرشاة ومعجونًا للأسنان وكمية من الفواكه التي قدمها جميع العاملين في المستشفى لها. وهكذا احتفلنا تلك الليلة بعد شهرين أو ثلاثة من الجوع المستمر. فتناولنا البرتقال ونظّفنا أسناننا بالفرشاة والمعجون أيضًا. وحين أطلق سراح

مهرانكيز بعد عدة أيام قالت عند ذهابها: لن أنساكم ومنذ هذه اللحظة فصاعداً سأنجز كلما أستطيعه لأجلكن. ونحن أيضا سررنا لأنها وجدت طريق الخلاص.

كانت مليحة الطالبة في كلية الطب قد اعتقلت في الشارع، وأخبرتنا أنها حينما كانت تحت التعذيب والتحقيق قررت الانتحار، وفي اللحظة التي خرج فيها الحرس من الغرفة تقدمت نحو النافذة وقفزت إلى الخارج، ولكنها لم تُصب بأي أذى فتظاهرت بالإغماء، ولم تُبدِ أي رد فعل رغم ما تعرضت له من صفعات لكي تصحو وتحرك أطرافها. وروت لنا كيف أنه لما خلا المكان جاء أحد الحراس القذرين وكان ينوي اغتصابها متصوراً أنه مغمى عليها، فكانت لا تستطيع مقاومته لأنها تظاهرت بالإغماء، لهذا بدأت بالارتعاد والتشنج والشخير فاضطر إلى تركها. وبعد خلو الغرفة قطعت المصل المغذي وقامت بجرح وريدها فأخذها المحققون بهذا الشكل إلى التعذيب وأدموا أقدامها بالكيبل.

أصبحت مليحة تعاني من أمراض عديدة، وريد مجروح بسبب إقدامها على الانتحار وأقدام ممزقة من أثر التعذيب. وكذلك أصبحت تعاني من مشاكل كليوية بسبب التهاب الأرجل، وهكذا أصبحت صحتها تتدهور ولم تكن لدينا أية إمكانيات داخل الزنزانة غير مشاهدتها وهي تتألم باستمرار.

أسلوبان من المحققين..والتعذيب واحد!

كانت الأم طلعت إحدى زميلاتنا في الزنزانة، عمرها يقارب 35 سنة، وكنا نلقبها بـ (الأم)، إما لأن سن أغلبنا كان أقل من 25 سنة أو لأنها كانت بالتأكيد أمًا لعدة أطفال. لقد اعتُقلت الأم طلعت مع عدد من أنصار مجاهدي خلق بجريمة مساعدتهم مجاهدي خلق، كانت تتظاهر بالسذاجة وتصور نفسها امرأة عادية (أي ليست سياسية)، وعندما تخبرنا بما حدث لها كنا نضحك كثيراً.

كان محققو الجيش يعدّون أكثر تعقيداً من كل المحققين وحسب تعبيرهم فإنهم يحققون بأسلوب علمي وقد أرادوهم أن يكونوا مثل شرطة الشاه السرية (السافاك)، يعملون قدر المستطاع ضمن حدود القانون. وبناء عليه أطلقوا على عمليات التحقيق والتعذيب التي

يخضع لها المعتقلون صفة "التعزير"، إذ كانوا يقرأون حكم الجلد وعدد الجلدات التي صدرت من جانب ما يصطلح على تسميته قاضي المحكمة المتواجد في نفس غرفة التعذيب. وإثباتا لتمسكهم بـ "آداب الشرع " كانوا يرددون: قال الأمام الخميني عندما تَجلِدون لا تزيدوا ضربة ولا تنقصوا ضربة! ولكن بالتأكيد كان هذا مجرد كلام إذا لم يعترف السجين بما تهوى نفوسهم، حينذاك يكون حاكم الشرع نفسه جلاداً أيضا، ويسارع إلى إصدار حكم آخر بضربات جلد أكثر، تطبيقا لفتوى خميني المشهورة التي أعلنها في ذلك الوقت في التلفزيون (الملا كيلاني) ممثل الحكومة والحاكم الشرعي للنظام قائلاً: "الإمام أيّد الجلادين لأجل الضرب حتى الموت" أي الضرب إلى الحد الذي يكون ضرورياً لكي يعترف المتهم، وهكذا ترك حدود الضرب مطلقاة!.

من جملة ما قالته الأم طلعت أنهم أخذوها مرة إلى التحقيق، ولأنها كانت تجيب متعمدة على أسئلتهم بكلمات مبهمة أو دون معنى، قام المحقق بتقييدها على سرير التعذيب لكي يجلدها بالكيبل، ثم رفع يداه إلى السماء برياء مفضوح وبحضورها وهو يقول: إلهي أنت شاهد على أني لا أريد أن أجلد هذه المرأة، ولكنها لا تعترف لذا فإني مضطر إلى فعل هذا دون تقصير!

رأت الأم طلعت رياءه، وبنفس صياغة أسلوبه رفعت يديها إلى السماء وهي معصوبة العينين قائلة: يا إلهي لقد سمعت صوت هذا الرجل الظالم فاسمع صوتي أيضًا. إني امرأة مريضة ولقد أخبرته بكل ما عندي ولا أعلم شيئاً آخر سواه لكنه لم يصدق كلامي ويريد أن يرغمني بالسوط على الاعتراف بعمل لم أرتكبه. إلهي أنت شاهد أنني غير مذنبة وها هو يضربني بالسوط، إلهي أجزه بما فعل. فما كان من الجلاد عندئذ إلا أن إظهر حقيقته وهو يقول أسكتي أيتها المرأة. وبدأ يضربها بوحشية. وعندما عادت الأم أخذت تحدثنا بسعادة عن انتصارها على هذا الدجال وهي تضحك.

والحقيقة أنها كانت في كل مرة تعود من التحقيق فتحدثنا عما واجهها من تجارب وملاحظات جديدة. وكان هذا نابعاً من أوج وعيها وشعورها العالي بمسؤوليتها في فضح

حقيقة نظام خميني. وكان من أبرز ما قالته عن تجربته: انتبهوا إلى أنهم لا يعلمون أي شيء قط ولكنهم يخشوننا، لهذا لا تطلعوهم حتى على كلمة واحدة ولا تتركوهم يخدعونكن. إنهم يخطئون في حساباتهم إذا كانوا يظنون أن بإمكانهم مواجهة مجاهدي خلق.

قبل اعتقالها كانت الأم طلعت ترقد على فراش الموت في البيت وقد نقلت من المستشفى إلى بيتها على أثر عملية جراحية أجريت لها. في ذلك الوقت هاجمت قوات الحرس بيتهم وأنزلوها من الفراش بالضرب والشتم أمام أنظار زوجها وأبنائها وأخذوها إلى سجن إيفين. كانت من أنصار مجاهدي خلق وتشارك في كل النشاطات الإعلامية مع سائر الأمهات المساندات. أما الآن فقد مضى شهر تقريباً على وجودها بيننا في الردهة209 تحت التحقيق والتعذيب لأجل أن يتعرّفوا منها على أخبار باقي الأخوات المجاهدات. غير أنها صمدت ولم تقف عند حدود عدم إعطائهم أية معلومات، بل أقنعتهم بكل وعي وذكاء ألا علاقة لها بهذا الموضوع كله، فأطلقوا سراحها بعد عدة أسابيع.

يجدر التنويه هنا إلى أنه قبل أن يُطلَق سراحنا كنا أعطيناها عناويننا وأرقام هواتفنا كي تذهب وتخبر عوائلنا. وقد فعلت ذلك على خير وجه. ولا أنسى كيف كانت وهي في الزنزانة قلقة على ابنتها فاطمة البالغة من العمر 14 سنة. كما لا أنسى قولها لي: حينما هاجموا بيتنا لم تكن فاطمة موجودة فيه واخشى أنها قد اعتقلت على أيدي عديمي الشرف لأنها كانت تشارك في المدرسة برياضة الميليشيا مع بقية التلاميذ المساندين للمجاهدين، ولقد تأكد لي لاحقا أن قلقها كان في محله بعد أن شاهدت في الردهة الجماعي ـ فيما بعد ذلك ـ ما فعلوا بابنتها الصغيرة.

لا أدري لماذا عمدوا إلى نقلنا بعد فترة قصيرة من تلك الزنزانة، وأخذوا كل واحد منا إلى أخرى، دخلت الزنزانة الجديدة فرأيت فيها كبرى علي زاده، إحدى زميلاتي في الدراسة التي لا أعلم عنها شيئاً منذ فترة طويلة، رأيتها ممزقة الأقدام وقد جلست في زاوية الزنزانة. كانت نحيفة جداً ولا يُسمع لها صوت. فتحت عينيها حينما رأتني وأنا أيضًا وبقينا عدة لحظات على هذه الحالة، لكنني تمالكت نفسي.

أم طلعت والأم معصومة رمزان بارزان

في تلك الزنزانة، كانت هناك أيضا معصومة ايلخاني، الأم التي كان عمرها يتراوح بين 36-37 سنة، وكنا نلقبها ومن في عمرها بالأم احترامًا وتقديراً لهن، ولأجل أن يضطر الجلادون إلى الاهتمام بوضعهن أيضًا. كانت معصومة امرأة ذات جسد نحيف ووجه هزيل وهادئة جداً ولا تنفعل، وكنا نراها صبورة جداً وتتحلى بقدرة عالية على التحمل. كانت جذابة تجلب انتباهك بكياستها وهدوئها بالإضافة إلى ضفائر شعرها التي لم تقصّها قط فكانت تبهر كل من يشاهدها. إنني لم أر حتى الآن مثل شعرها الذي أصبح موضع اهتمام جميع الأخوات في الزنزانة، وكذلك تصرفها الدائم بحسن خلق ولطف.

سُجنت الأم معصومة في عهد الشاه أيضا بجريمة مساندة مجاهدي خلق، وهكذا ارتكبت الآن أيضا نفس "الجريمة " فزجّوا بها في سجون خميني بعد إنجاب وليدها الثاني. والغريب أنها سُجنت في عهد الشاه بعد إنجاب ولدها الأول، وقد كانت تقول: إنه مصير غريب. كلاهما يجب أن يكبرا بدون أم، والأغرب أن اعتقالي قد جرى بعد ولادة كل منهما فوراً. إني خجولة جداً من والدتي العجوز لأن عناء تربية أطفالي سيقع على عاتقها.

مرة كانت تصلي ولم تكن ترتدي جورابا فلاحظتُ أثناء سجودها أن كف أحد قدميها ليس طبيعيا وقد أجريت لها عملية فأثار ذلك فضولي.نظرتُ بدقة أكثر فوجدت أن أظافرها إما غير موجودة أو مشوهة وغير طبيعية، وعندما أنهت صلاتها لمست برفق كف قدمها فصرخت دون قصد من الألم، فكان واضحاً أنها شديدة التأثر ومتألمة فسألتها بتأثر لماذا قدماك بهذه الصورة؟ تأوهت بهدوء قائلة لا شيء! وبعد إصراري أجابتني إن هذا يعود إلى عهد الشاه.. ولم تُكمل، ثم ارتدت جورابها. وعلمت بعد ذلك أنها عُذبت في عهد الشاه وقاموا بقلع أظافرها، ولكنها لم تذكر ذلك ولو لمرة واحدة على الرغم من تأثر كف قدمها الشديد لكي لا تلفت انتباهنا. لقد كانت تحمل الكثير من قيم مجاهدي خلق وذكرتنا بأشياء كثيرة، ولهذا السبب كانت موضع احترامنا. ومن بين الأشياء ندين لها بها معرفة نظام خميني وعدم الثقة به إطلاقًا.

ذات مرة جاء لزيارة الزنزانات عدد من الملالي لم نكن نعرفهم ولم نتفوه بكلمة واحدة معهم، مع أنهم قالوا لنا جئنا لنرى المشاكل التي تعانون منها، ونريد حلها، فقالت الأم معصومة يجب ألا تتحدثوا معهم بشيء قط، نحن ليس لدينا كلام مع العدو. في النتيجة عندما جاؤوا إلى زنزانتنا وشاهدوا أوضاعنا خجلوا كثيراً، ثم أدركنا بعدها اكثر أننا فعلنا الصواب لأن جزءاً من خطتهم كان التعرف على أولئك اللواتي يثيرن المشاكل ويشتكون ويعترضون، حتى يعدّو العدة للقضاء عليهم. كان هذا هو الأسلوب الذي يستعمله ملالي حتى يصلوا الى تقييم عن السجون، وعن قوة أو ضعف السجناء، وليروا إلى أي مدى يأتي الضغط بثماره وفي أي شخص أكثر وفي أي مجال، وما الذي يميز الأفراد السياسيين عن غير السياسيين.

كانت هذه الأم رمزاً سياسياً من أبرز الرموز اللواتي استشهدن لأجل القضية دون أن يعرف الكثيرون أي واحدة منهن، وما الذي عانينه. لقد كانت تتحدث عن بطولات مجاهدي خلق في سجون الشاه،وتعدّ نفسها صغيرة أمام تضحياتم ومدينة لهم، وكانت تحدثنا عن قيمة عملهم. هؤلاء الأبطال تضاعفوا آلاف الأضعاف في زمن خميني.. وإلى اليوم.

مشاهدات صبية في عمر الورود

إحدى زميلاتنا في الزنزانات، فتاة تبلغ من العمر ما يقارب 16 سنة تُدعى زهراء، كانت ذات بشرة نظرة ونحيفة الجسم. اعتُقلت في نفس حملة اعتقالات الشوارع وفي حوزتها كتاب يضم مجموعة قصصية اسمها (قصة العاشقين)، ولذا اعتُبر في نظر حرس الملالي سببا لاعتقالها، مع أنه لم يكن لها أي اهتمام سياسي، بل كانت سريعة التأثر ومليئة بالأحاسيس. ونظرا لأنها كانت من عائلة فقيرة جداً فقد ركزت على أن تعمل وتفكر في الزواج لعلها تستطيع تحسين حالها، ولكن اعتقالها دمر كل حياتها وأحلامها.

كانت زهراء مصابة بنوع من حالات الصرع، وفي المرة الأولى التي رأيتها على هذه الحال خفتُ كثيراً وتصورتها ميتة لأنها كانت تتشنج في البداية ثم كانت لا تستطيع التنفس بسبب انقباض عضلاتها. وبعد دقيقة أو دقيقتين كانت شفاهها تزرق وكذلك وجهها وتصبح ذات لون أسود. ولكوني أواجه لأول مرة مثل هذه الحالة فصرخت بقوة وطرقت باب الزنزانة وقلت: تعالوا! هنا شخص في حالة خطرة! جاء الطبيب وزرقها دواء بالوريد فأوقف تشنجها ثم نامت.

وفي كل مرة كانوا يأخذون زهراء إلى التحقيق، كانوا يرجعونها بأقدام دامية ومتورمة بعد إصابتها بالصرع من شدة ضربات الكيبل التي تتعرض لها أثناء التعذيب حتى توصلها إلى أعتاب الموت. ومع أنهم لا يمتلكون أي مستمسك يدينها إلا أنهم لم يطلقوا سراحها انطلاقا من اعتقادهم أن الضغط على الإنسان العادي غير السياسي يمكن أن يعطي نتيجة لصالح أغراضهم الدنيئة المختلفة ويجبر فريستهم على التجسس داخل السجن وخارجه، فضلا عن الإستفادة منه لأغراض جنسية دنيئة ....ألخ!

كنت استمع مرة في غرفة التحقيق إلى حديث اثنين من المحققين، قال أحدهما للآخر: لقد ذهبت للخطبة ولكنهم لم يوافقوا على تزويجي الفتاة وقالوا لي أنت من قوات الحرس، فردّ عليه الآخر: اذهب وأحضرها إلى هنا وافعل بها ما تشاء وحينذاك سيضطرون إلى إعطائها لك !

أحياناً كان ينفد صبر زهراء، فتعمد إلى طرق باب الزنزانة وتصرخ وتسب وتشتم لأنهم لم يطلقوا سراحها، وكنا نحاول تهدئتها لأننا كنا نعلم أنهم إذا أخذوها مرة أخرى إلى التعذيب فإنه من المحتمل أن يؤدي ذلك إلى مصرعها. ولا ننسى أنه عندما يأخذها الجلادون في كل مرة كانوا يعيدونها بنصف وعيها وأقدام متورمة بحجم الوسادة.

في زنزانتنا أيضا تواجدت فتاة أخرى أسمها نورا وهي من أنصار مجاهدي خلق في الشمال. عندما يأخذونها كل يوم إلى التحقيق كانت ترى التعذيب المرعب في الطابق تحت الأرضي لقفص رقم (209). في إحدى المرات أخذوها مرة وبقيت لساعات تحت التعذيب

ثم احتجزت هناك كي تسمع أصوات باقي المعتقلات وترى بعينيها عملية تعذيبهم بهدف إضعاف عزيمتها، وعندما عادت من التحقيق كانت مضطربة جداً وهي تردد أمامنا: إنهم جلادون لم يشهد التأريخ لهم مثيلا.أخذوني تحت الأرض في مكان مظلم، جدرانه مغلفة بالكاشي (السيراميك) مثل محلات القصابين وقد تناثرت عليها الدماء، وعندما دققت النظر رأيت شبابا قد عُلقوا بشكل عمودي أو معكوس ورؤوسهم ووجوههم دامية، بعضهم كان يئن وبعضهم الآخر لايتحرك ولا يُسمع لهم أي صوت، واعتقد أنهم قد استشهدوا.

أحد هؤلاء الشباب فتح عينيه عدة لحظات فرآني وناداني بصعوبة وهو يئن: أختي وضعي سيء جداً، لقد انتهيت سأموت، قولي إنني لم أقل لهم أي شيء قط و.... فلم أكن أعرف ماذا افعل وكان قلبي ينفجر من الحزن، ذهبت وجلست تحت قدميه، وقلت أخي ضع قدميك على ظهري كي يقل الضغط على يديك، أرجوك! ولكنه رفض قائلاً: أنا لم أقل لهم أي شيء قط. ولكنني ذهبت ثانية وجلست في وضع القرفصاء تحت قدميه وجعلت ظهري مسنداً لقدميه المتدليتين لكنه لم يكن بمقدوره أن يجيبني ثانية.

وعلى هذه الحال استمروا وواصلوا أخذ زهراء يومياً إلى هذا المكان المرعب لتبقى فيه عدة ساعات ثم يرجعونها.

..وصبية أخرى أهلها من أتباع النظام

إضافة لما سبق، كانت في زنزانتنا فتاة أخرى غريبة الأطوار تبدو غير منسجمة مع الأخريات وكأنها معتوهة. في الوهلة الأولى لم استطع أن أفهم منها من تكون. ثم علمت من بعض الزميلات في الزنزانة أن أسمها زبيدة وهي من أحد الأرياف شمال إيران وكان جميع أفراد عائلتها من أنصار نظام خميني ويعملون في قوات الحرس. وكان والدها ـ رئيس اللجنة في مدينتهم ـ يجلد الناس، فاستغربتُ من تواجدها بيننا في البداية واعتقدت أنهم أحضروها هنا لأجل التجسس علينا. فصممت على أن أتعرّف إليها. فعلمت منها أنها كانت طالبة، وعلى صلة بمجموعة من الشباب ولها علاقات غير مشروعة معهم، سألتها: ألا يجلد والدك أية امرأة أو رجل بسبب سيرهم الطبيعي في الشارع؟ إذن بماذا تبررين أنتِ

هذه الأعمال التي فعلتها؟ قالت ببساطة إنني كنت أتمتع! أي أنها كانت تمتهن البغاء بغطاء شرعي صنعه الملالي، في الوقت الذي كانوا يجلدون فيه الناس البسطاء. وهكذا ارتكب جميع أفراد عائلتها هذه الأفعال بمن فيهم (الأشقاء، الأب، والصهر) وكانت هي ضحية هذه العلاقات والارتباطات الفاسقة. فسألتها مرة أخرى عن كيفية مجيئها إلى هنا، وأصغيت باهتمام إلى كل ما قالته نظرا لأن قضية العائلة المؤيدة للنظام هذه تضع الجميع أمام علامة استفهام؛ لاسيما وأنهم من مدينة صغيرة، وقد أرسلوها إلى طهران عند شقيقتها وزوج شقيقتها وكلاهما كانا في قوات الحرس حتى لا تفسد أكثر من هذا ولتكون تحت أنظارهما. ولذلك كان زوج شقيقتها يحاول " تأديبها " من خلال تخويفها قليلاً، فيعمد إلى إحضارها لسجن إيفين ووضعها في إحدى الزنزانات، بما أنه ـ حسب قول زبيدة ـ كان يعمل في هذا السجن.

في بعض الأحايين كانوا يأخذون زبيدة لاستجوابها بحثا عن أثر لذلك الولد الذي كان صديقها ثم يرجعونها. ويبدو أنه كان يريد التعرف على عائلتها من خلالها ولكنها لم تعطهم عنوانه ـ حسب قولها ـ، وبالتأكيد كانت تكذب وقد أعطت اسمه وعنوانه ولكن يبدو أنهم لم يجدوه.

على أية حال لم يقف وضع زبيدة عند هذا الحد فقط. ففي إحدى المرات عادت من التحقيق ولم يكن وضعها طبيعياً وكانت خائفة جداً وحائرة. فعلى الرغم من ان أفراد عائلتها كانوا من الحرس ومؤيدين للنظام، إلا أن معاملتهم لها لم تكن سيئة، لكنها حينما رأت عن قرب أعمال التعذيب التي يرتكبونها بحق السجينات ليل نهار أصيبت بالهلع. ولهذا كانت تتألم منذ ذلك اليوم حتى دخلت الزنزانة إلى جانبنا وأصيبت بالصدمة والحيرة عن هذا الوضع.

سألتها: ماذا حدث، ولماذا أصبحت كالإنسان المصعوق؟ فردت علي قائلة: رأيت زوج شقيقتي، عرفته في البداية من صوته ثم رأيته بعيني واضعاً قناعا على وجهه ويضرب إحدى الأخوات بالكيبل بعد أن قيدها في سرير التعذيب. نظرت إلى يديه نظرا لأن إحداهما كانت مقطوعة من المفصل، وعندها تيقنت بالقطع أنه هو نفسه. لف الكيبل حول مفصله وكان يضرب بشدة جسد تلك الأخت. كان مرعبًا جداً!

إذن، ها هو قد أصبح في نهاية الأمر جلادًا، واستمرت تردد هذه العبارة: إذًن إنه جلاد!

سألتها عن اسم زوج شقيقتها، قالت انه (إلياس برادران) وسبق له أن كان طالبًا جامعيًا. وهذا يشير إلى أن زبيدة المسكينة لم تكن على دراية بخبرة خميني ونظامه في مجال تحويل الطالب الجامعي إلى جلاد والإنسان إلى شيطان. ولهذا لم يكن غريبا أن يأخذوها بعد عدة أيام من بيننا، واعتقد أنهم أطلقوا سراحها لأنها لم تكن أساساً سجينة ولم يكن ذلك أكثر من تأديب عائلي لها.

إعدامات بالرصاص على مدار الساعة

كنا في الردهة رقم (209) نسمع كل يوم في حدود الساعة السادسة مساء، وهو الوقت المحدد لتوزيع العشاء صوتاً مرعباً يأتي من الخارج كصوت شاحنة تفرغ كميات كبيرة من الحديد على الأرض. لكننا لم نستطع أن نعرف مصدره، وإن كنا نرجح أنهم يبنون بناية. واستمرينا على هذا التصور لفترة من الوقت إلى أن غادرت إحدى السجينات الزنزانة، ولما عادت قالت إنهم يأخذون مجموعة من السجناء للإعدام. وبعدها بفترة سمعنا نفس الصوت فتوصلنا جميعا إلى نتيجة واحدة وهي أن هذا صوت إطلاق جماعي للرصاص من عشرات البنادق في آن واحد. فخيّم علينا الصمت وجلسنا حول بعضنا وقد أعطونا العشاء المكون من حساء خفيفً، وبدأنا نردد بصوت خافت جماعياً أنشودة «وطن الشهداء»:

«يا ايران يا وطن الشهداء»

من أناشيد منظمة مجاهدى خلق الايرانية

يا ايران، يا وطن الشهداءِ
يا عرين الاسود الخالدِ
كنت أنتظر منذ زمن
لأُصبح من مجاهدي خلق
ضحّيت بحياتى من أجل الشعب الايرانى

حين بزوغ الفجر
ليصير التراب الايرانى
مزاهر شقائق النعمانِ
ترتوي بدماء الشهداءِ

حركة المحرومين
ستجرف وتدمر من الاساسِ
قصور من يريدون الهيمنة على العالمِ
وفى عالمنا
ظلت متقدة ملتهبة
جذوةُ الثورةِ
فى قلب كل انسانِ
الى الابدِ

أنصت لهذه الكلمة الاخيرةِ
وابعث الحياةَ فى القصة العريقةِ
وخذ سلاحى من مسقطه
فأحرق به قصورَ الظالمين
واسلك سبيلى
لكى تحرر الوطن
ألا واستذكر فى كل لحظة
الاناسَ المضمخةَ أكفانُهم بالدماءِ

حركة المحرومين
ستجرف وتدمر من الاساسِ

قصور من يريدون الهيمنة على العالمِ
وفى عالمنا
ظلت متقدة ملتهبة
جذوةُ الثورةِ
فى قلب كل انسانِ
الى الابدِ

عندما انهمر دمى الساخن
على جسدى
كان حب شعبى الابى
زادًا لطريقى فى كل وقت
لكان كلامى الاخير
«الله أكبر»، حين صدحت بهِ
حب الشعب يدلّنى
ونور القرآن يقودنى
ويضيىء دربى

حركة المحرومين
ستجرف وتدمر من الاساسِ
قصور من يريدون الهيمنة على العالمِ
وفى عالمنا
ظلت متقدة ملتهبة
جذوةُ الثورةِ
فى قلب كل انسانِ
الى الابدِ

لكن نظام خميني لم يقم بإعدام مجاهدي خلق رمياً بالرصاص في الصباح الباكر فقط، بل في المساء وفي كل وقت فكان لا يعرف ولا يحدد وقتًا معينا لهذه المجازر. أما نحن فكنا نتوقع ذلك دائماً في الصباح وفقا لما قرأناه عنهم حول تنفيذ حكم الإعدام وقت طلوع الصبح.

في لحظات الصمت هذه رأيت ملعقة زهراء تتحرك بارتعاش نحو طبق حسائها، بينما كانت دموعها تجري وهي تضع ملعقة الحساء ببطء في فمها.

بعد انتهاء النشيد بقليل، طلبت من إحدى الأخوات أن تساعدني كي أستطيع الوصول إلى النافذة الموجودة في أعلى الجدار لربما أرى أو أسمع شيئاً. كان أمامي جدار يمنع رؤية أي شيء. لكننا بدأنا نسمع صوت إطلاقات منفردة هذه المرة بعدد الذين نُفّذ فيهم حكم الإعدام وقد تجاوز المئة. كان هذا ما نفعله كل ليلة: بدء سماع إطلاق الرصاص، نشيد وطن الشهداء، ومن ثم الصعود إلى أعلى النافذة كي نستطيع عد نتيجة المجزرة التي حصلت ليلتها. ففي الليلة التي أعدموا فيها (الأم كبيري)[1] قمنا بعد أكثر من (220) إطلاقه منفردة (رصاصة رحمة)، مع أننا لم أستطع وسوف لن نستطيع وصف مشاعرنا ووضعنا في تلك اللحظات التي كنا نَعِدّ فيها هذه الرصاصات واحدة تلو الأخرى، ونعرف أن معنى كل واحدة منها إعدام واحد من المناضلات كطوبى وفهيمة وناهيد و.... وأمثالهن اللواتي كم أحببناهن، حينما كان عدد الإطلاقات يقفز من (50و60و80و100) ويستمر أكثر، كنا لا نعلم متى يصل إلى النهاية. كانت القلوب تصل إلى الحناجر، وكان يدق صوت كل إطلاقة في أعماق وجودنا كالناقوس ويكاد عقل كل منا أن ينفجر، وعندما يصل إلى النهاية، كنا نعلم أن الغول بدأ يدور حول نفسه، فنتساءل على من سيكون الدور في الغد، وغدًا في المساء كم سجيناً آخر سيتم إعدامهم؟

لقد قرأت كثيرا حول معسكرات الموت النازية بما في ذلك كيف انهم كانوا في أغلب الأحيان يقتلون ضحاياهم بغتة ومن دون علم، حتى أنهم كانوا يرسلونهم بحجة الاستحمام إلى غرف الغاز وغيرها. أما في سجن إيفين وباقي سجون خميني الأخرى فإنهم كانوا يمزقون الإنسان إرباً تحت وطأة التعذيب، ثميحتفظون به بين يدي الموت لأيام وأسابيع

وشهور وحتى لسنين وفي النهاية يقطعون رأسه بلا رحمة. لقد صدقت الشهيدة أشرف رجوي بقولها الرائع: (إن العالم لم يطلع بعد على ما جرى للشعب الإيراني).

طوال هذه الفترة كنت نوعاً ما على اتصال بـتهيمنة ومطمئنة على سلامتها حيث توجد في إحدى الزنزانات الواقعة خلفنا، ولهذا عندما كنت أشعر بعدم وجود من الحرس، أناديها بصفير كنا اتفقنا عليه وهي تجيبني بسرعة بنفس الصفير. لقد كانت جريئة وشجاعة وصلبة، ولا أنسى أنها قلّدت ذات مرة صوت الضفدع أيضا، وأن صوتها كان يجرها إلى الاصطدام مع الحرس. في إحدى المرات حاكت صوت الضفدع فأضحكتنا جميعاً وأغضبت الحراس فبدأوا بالصراخ على السجينات ثم أخذوا يشتمونهن. ولأننا كنا نغضبهم كنا مسرورين بذلك كثيراً. لهذا كنا نفعل هذه الأعمال وأمثالها باستمرار. وكان يضع أفراد الحرس كمائن أحياناً لمعرفة الشخص الذي يصدر هذه الأصوات ثم يأخذونه إلى التعذيب لغرض التأديب، لكن السجينات لم يتركن هذه الأعمال وداومن على فعلها إذ يعتبرنها إحدى أنواع المقاومة التي تشحذ الهمم في ذلك المكان المميت، فاستمرت هذه الأعمال. أنا كنت راضية بذلك لأن تهيمنة كانت على قيد الحياة وهذا كان يجعلني مسرورة جداً.

فتاة كالهنود الحمر

كانت (كبرى عليزاده) إحدى زميلاتي في الزنزانة وقبلها في أيام الدراسة أيضا، هي فتاة هادئة وكادحة جداً ومحبوبة الطرف. يحبها كثيراً كل المرضى. وقد أطلقنا عليها خلال فترة الدراسة الجامعية إسم فتاة الهنود الحمر لأن شعرها كان أحمر اللون لامعًا وكانت تَفرِقه من الوسط وذات قوام نحيف وظريف وبشرة خضراء، وكانت ضمن مجموعتنا في القسم الداخلي للطالبات فكنا نجتمع أحياناً حول بعضنا ونربط شريطاً حول رأسها لنؤدي سوية بصوت عال غناء وحركات راقصة للهنود الحمر كي نتسلى ونضفي على أنفسنا البهجة والسرور والآن تلك الفتاة التي كانت صغيرة بالنسبة لي موجودة في الزنزانة بأرجل ممزقة جراء الضرب والجلد ولكن كان يتلألأ في نظراتها نفس بريقها الدائم بريق المحبة.

لقد اعتقلت كبرى في الشارع أيضا وكانت تحمل معها أثناء اعتقالها وثائق ومنشورات، لكن الحرس لم يجدوا لها أثراً، لهذا كنوا لها حقداً شديداً وجعلوها منذ نفس تلك اللحظة قيد التعذيب وقد أدموا قدميها، حتى لم تعد تستطيع السير لفترة من الزمن. وحينما رأيتها كانت قد تحسنت قليلاً بعد أن غدت تسير بمساعدة بقية زميلاتها، ولم تلتئم بعد جروح قدميها، مما سبّبَ لها مضاعفات لعدم توفر الإمكانيات اللازمة لمتابعة حالتها في الزنزانة وكانت أرجلها تحتاج إلى إجراء عملية كي تلتئم جروحها، ولكنها قالت: لن يجروا لي العملية، لأن المحقق قال لي: سأعدمك كونك من شمال إيران، ذلك لأن أفراد الحرس كانوا يكنون حقداً عجيباً لسكان الشمال وكانوا يطلقون على جميع سكان الشمال الإيراني « المناوئين للثورة»، عدا عن أن أنصار مجاهدي خلق في الشمال أكثر عددًا مما في المناطق الأخرى. لهذا السبب أخذوا كبرى إلى أماكن التعذيب، وقال لها الجلاد أضربك أولاً مئة جلدة كونك من شمال إيران، وضربها ثم قال لها: الآن سأضرب حصتك المقررة من الضرب. فبَصَّقَت في وجهه. أن الشخص الذي يكون لعدة ساعات في غياهب التعذيب التابعة للنظام الإيراني أو الذي يجلد (5-6) جلدات بالسوط هو الذي فقط يستطيع أن يفهم ماذا يعني البصق على وجه المحقق بعد الجلد مئة جلدة بالسوط.

أخذوا كبرى عدة مرات إلى التحقيق وجلدوها بالكيبل ثانية على نفس تلك الأرجل المجروحة وعلى نفس الجروح، وذكرت بعد عودتها من هناك أنها شاهدت تهمينة في غرفة التحقيق قائلة: استطعت أن أقول لها إني موجودة مع هنكامة في نفس الزنزانة. فسألتُها: هل ستتمكنين من رؤيتها مرة أخرى، قالت ربما يكون ذلك، فكتبت رسالة في ورقة صغيرة إلى تهيمنة وقلت لها إذا شاهدتها اختاري فرصة مناسبة وحاولي أن تعطيها لها. معروف بالتأكيد أن الأشخاص الذين يقبعون في سجون خميني تحت التعذيب لايسمح لهم بامتلاك ورقة وقلم ولكنني استطعت أخذ قلم وقصاصة ورق من غرفة المحقق أثناء ذهابي إلى التحقيق وأخفيتهما في حافة النافذة الصغيرة الموجودة أعلى الزنزانة وكنا نستفيد منها في بعض الحالات. خطرت لي فكرة أفضل أن أهيئ رسالة وإذا واجهت تهمينة لأي سبب أعطيها لها. لقد كتبت لها في الرسالة عن أحوالي وأخبار ومعلومات واعتقالات جديدة، وقد وضعتها في جيبي على شكل أنبوبة صغيرة مطوية وكنت أترقب الفرصة التي

جاءت صدفة عندما ذهبت زهراء الى الحمّام برفقة زبيدة نظرا لسوء وضعها الصحي. وفجأة طرقوا باب الزنزانة بقوة ونادت الحارسة: لتخرج هنكامة بسرعة، فارتديت ملابسي فوراً، وودّعت الفتيات لأن المناداة بهذا الشكل لا تكون هناك في العادة عودة بعدها. وحينما خرجت قالت الحارسة التي نادتني تعالي خلفي بسرعة. فأخذتني إلى الممر الموجود خلفنا وفتحت باب الزنزانة فشاهدت زبيدة واقفة عند رأس زهراء التي ازرقّت وسقطت وتركوها جالسة. وعندما رأتني زبيدة قالت: ستموت زهراء، ولأنه لا يوجد طبيب طلبت منهم إحضارك. قالت تلك الحارسة: ماذا أفعل الآن؟ قلت لها: اجلبي حقنة وأبره فاليوم! ذهبَت لتجلبها. أول شيء شاهدته في الباحة ملابس كانت معلقة أعرف أنها ملابس تهيمنة فأدركت أنها موجودة هناك، فقمت بوضع الرسالة المكتوبة في جيب معطفها. وشكرت الله كثيراً أنه منحنا هذه الفرصة الجيدة،. وبعد أن زَرَقتُ زهراء بإبرة الفاليوم تحسنت نوعاً ما وأصبح حالها أفضل وعادت إلى وضعها الطبيعي. وحينما رأت الحارسة ذلك قالت: هناك امرأة وضعها سيئ أيضًا، إلقي نظرة عليها لأننا لانعرف متى يأتي الطبيب. فأخذتني إلى الزنزانة الأخرى، حيث وجدت امرأة حاملا ووضعها سيئ بسبب تعرضها للتعذيب، فطلبت من الحارسة أن تجلب لي قليلاً من الماء والسكر.

في هذه الأثناء تحدثت معها وحينما اطمأنت إلي، قالت: أروني زوجي الذي كان قد تمزق تحت التعذيب فصدمتُ من جراء ذلك. وعندما عادت الحارسة أخبرتُها أنها حامل وقد أصابها ضعف عام، وطلبت منها أيضا أن تجلب لها عصيراً وحليباً وغيرها من هذه المواد الضرورية فذهبت وأحضرتها. والآن يجدر التوضيح أن هذه الحارسة كانت تمثّل حالة استثنائية، فهي أولا متمسكة فعلا بقضايا الشرع ومبدأ الثواب والعقاب، وهي ثانيا تشبه زبيدة من حيث عدم إلمامها ببعض الأمور. فهي في هذه الحالة على سبيل المثال لم تكن تدري أنه لا يجوز لها القيام بمثل هذه الأعمال وتنفيذ ما طلبناه منها. وهكذا كانت تتصرف كحارسة مناوبة بشكل معتاد. وبناء على هذه الميزة النادرة استطاعت السجينات الإستفادة من وجوده خلال مواعيد عملها المسائية (كونها خفراً) للحصول على بعض الأشياء والإحتياجات الضرورية خصوصا للمرضى الذين كانت تجلب لهم أثناء ساعات عملها

حليبًا وسكرًا ومواد أخرى. لكن هذا الوضع الإستثنائي لم يستمر طويلا حيث قاموا بنقلها من هذا المكان إلى مكان أخر.

أعود إلى ما حدث لكبرى، إذ أخذوها بعد فترة من زنزانتنا كي ينفذوا حكم الإعدام رمياً بالرصاص بحقها، ولكننا كنا لا نعلم ولم ندرك ذلك إلا بعد أن ذهبنا إلى الردهة الجماعي. نعم، تلك الفتاة الصغيرة كالهنود الحمر بتلك الابتسامة المشرقة والمحبوبة التي تزين ثغرها انتقلت إلى جوار ربها ظلما وفي صمت مطبق، ودون أن تعرف عائلتها أين هي وما الذي فعلوه بها. أُعدِمت، إلا أنها تركت في قلوب كل الجلادين الحاقدين حسرة على عدم استطاعتهم فرض الإستسلام عليها وعلى أمثالها من المناضلات والمناضلين، ولم يتوقف حقدهم عليها وحدها من بين أفراد عائلتها، بل علمتُ فيما بعد أنهم أعدموا شقيقتها الصغيرة بعد فترة قصيرة من إعدامها.

تجربة زوجين علّمتنا الكثير

كنا نجلس ذات يوم في الزنزانة عندما فتحوا علينا الباب وأحضروا إحدى الأخوات وضمّوها إلينا. كانت طويلة القامة ترتدي ملابس المرضى وتضع على رأسها منشفة صغيرة ـ بدل الحجاب ـ تتدلى على جانبي وجهها . لاحظنا منذ البداية لونها الشاحب وعلائم التوعك عليها فقمنا على الفور بأخذها من يدها وساعدناها على الجلوس. وسرعان ما سقطت المنشفة من على رأسها بفعل الإنهاك، فبانت علائم وجهها الجميل وشبابها ولمعان عيونها العسلية الفاتحة.

كان فمها مصاباً بجروح مضاعفة أو بالأحرى كان ممزقاً ولم تكن قادرة على الكلام رغم محاولتها الردعلينا وترحيبنا بها والإعراب عن شكرها لنا. وعلى الفور ألبسناها ملابس أخرى وأعددنا لها شراباً من الماء والسكر وهو كل ما نملك، عدا عن أنها لم تكن تستطيع أكل شيئً بسبب جرح فمها. ثم تركناها لتستريح قليلاً. بعد ذلك قمنا بالتعرف عليها وأخبرناها بأن جريمتنا تأييد مجاهدي خلق. كانت هذه عادتنا في السجن ان نُعرّف الآخر بمواقفنا دون الإدلاء بأية معلومات، آخذين بعين الإعتبار تجنيد النظام لعدد من المنهارين والجواسيس بين السجناء لكتابة التقارير وتسليمها للمحققين. ورغم حرصنا على الحذر إلا

أننا عملنا على إبلاغها ببعض الوقائع التي تؤكد على مواقفنا. أما هي فقد كانت محافظة في كلامها ولا تطلب منا أية معلومات إضافية لأنها تدرك أن كل خبر ستعرفه سوف ينقلب وبالا على رأسها عند سوقها للتحقيق.

كان اسم هذه الأخت التي دخلت الزنزانة الآن أفسانه أفضل نيا، وكان اسم زوجها عباس بيشداديان. وكلاهما كانا طالبين في جامعة طهران، وما زلت حتى الآن أتذكر أنها كانت طالبة في قسم علوم الاجتماع،ولها طفلة عمرها ستة أشهر. كانا يسكنان في شارع مصدق حينما علمت بهما قوات الحرس وقد قاوما كثيراً أثناء عملية اعتقالهما كما أصيبا بجروح بليغة. نُقلا على أثرها إلى المستشفى ثم تم نقلهما بعد ثلاثة أيام إلى سجن (إيفين) للتحقيق والتعذيب. ولأنها لم تكن تستطيع أكل أي شيء قط فقد كنا نطلب بإلحاح من السجانين أن يعطوها حليبًا أو أي غذاء آخر..ولكن دون جدوى، فكنا نقدم لها ما باستطاعتنا كشراب الماء والسكر وسوائل الأطعمة الأخرى التي كانت تُعطى لنا ما عدا الأرز. لكن هذه السوائل كانت تسبب لها حرقة في جروح فمها. ومع ذلك كان الجلادون يصرون على أخذها للتحقيق، وكانت تقول لنا "إنهم يطلبون مني عنوان بيت في حي (تجريش) إحدى ضواحي طهران، وبما أنني لا أعلمه يواصلون تعذيبي ". كانت تقول لنا ذلك متعمدة بصيغة خبر على أمل أن يصل إلى منظمة مجاهدي خلق ما يفيد بأن المحققين لم يكشفوا بعد ذلك البيت، وأنه إذا كان من الأنسب تركه فليخلوه سريعاً. نحن أيضا لم نكن نذكرأمامها تفاصيل لا داعي لذكرها، إنطلاقا من إدراكنا أن هذا قانون السجن.

أذكر ذات مرة أنه بعد عودتها في أحد الأيام من التحقيق كانت قلقة ومضطربة جداً، لكنها في نفس الوقت كانت صلبة. قالت لنا وقتها والدموع تترقرق في عينها "إن أخلاقهم سيئة جداً، أخذوني إلى زوجي لكنني لم أعرفه، كان جسده مغطى بالدم، لا أعلم ماذا فعلوا به إذ كانت كل أنحاء جسمه ملطخة بالدم (الأيدي،أصابع اليد،الأقدام،الرأس،الوجه) وكان فمه ممزقاً ودامياً. وحينما أخذني المحقق إلى زوجي ووقفت بالقرب منه قال لي "هذا زوجك، إذا كنتِ تريدين أن تبقين على قيد الحياة فاعترفي وأعطينا عنوان البيت في تجريش" ! وفي هذا الكلام التهديدي تأكيد على أن زوجها البطل لم يعطهم أي معلومات قط. وبعد ذلك استطاع زوجها أن يفتح عيناه وينظر إلى أفسانة القوية وسط وجهه الملطخ بالدماء، فكان

قوياً ولم يتمكن العدو أن يحصل عن طريقه على أية معلومات، وتقول أفسانة رداً على المحقق: ليس لدي عنوان حتى أعطيه لك، فصفعها المحقق بقوة على وجهها وهو يصرخ أيتها المنافقة الفظة!، فأَرجعوها إلى الزنزانة.

..ولمل أخذوا أفسانة مرة أخرى إلى التحقيق عادت لتقول وقد اسندت رأسها إلى جدار الزنزانة: لقد وضعوا طفلتي فاطمة التي عمرها ستة اشهر أمامي في زاوية الردهة، الطفلة وهي التي حرمت من حليب والدتها وحنانها منذ اليوم السادس لولادتها وكانت تئن بضعف وتسكت. وضعوها متعمدين أمام عيني حتى يهزمونني ويثيرون عواطف الأمومة داخلي، وأبيع شعبي، ولكني لن أفعل ذلك ولن أخون حتى لو كان الثمن روح طفلتي. ولم تستطع في هذه اللحظة منع انهمار دموعها.

لم يمض على اعتقالها غير عشرين يوما فقط حتى قاموا بإعدام أفسانة البطلة في الوقت الذي لم تعترف فيه بكلمة واحدة للعدو. وفيما بعد شهد أحد الأشخاص الذين كانوا يعرفونها جيدا أن أفسانة مرغت أنف أعدائها بالتراب وحرمتهم من أن يكتشفوا حتى قبل إعدامها أنها كانت إحدى المسؤولات البارزات والكوادر النشطة في منظمة مجاهدي خلق وإلا لما كانوا أعدموها بهذه السرعة.

نعم لقد علمتنا أفسانة في هذه المدة القصيرة أشياء كثيرة دون أن تتحدث كثيراً.

كان من أبرز ما تعلمناه كيف يستفيد النظام من الخونة والجواسيس لإضعاف معنوياتنا ودحر مقاومة السجناء، وكان هذا أحد أساليبه المضللة في العمل وبالتأكيد فيما يتعلق بمجاهدي خلق. إن أغلب سهامه كانت طائشة وترتد نحوه، أي إن أغلب محاولاته للنيل من إرادة مجاهدي خلق الأبطال كانت تجهض ويكون مصيرها الفشل، ومع ذلك لم يتوقف عن مواصلة محاولاته الدؤوبة. في إحدى المرات كانوا يبثون عبر مكبرات الصوت في الردهة مقابلة مع أحد الخونة بكل ما لديهم من مستلزمات التطبيل. في حينها عادت أفسانة إلى زنزانتنا قائلة " انتبهوا أيتها الفتيات، إن الخائن أسوأ من العدو الذي نواجهه أمامنا، إنه يريد بعمله أن يحطم معنوياتكم، لا تصدقوا أبدًا كلام الخونة". ومع أن مثل هذا الكلام سيجلب أخطارًا مؤكدة لأفسانة نظرًا لمكانتها، إلا أنها بقيت مصممة على خيارها المتمثل

بالثورة وعدم التنازل. وحين تأكدت أننا أدركنا هذا الموضوع جيداً ولن نخطىء ولن تلين عزائمنا ارتاح بالها لأن الكلام بذلك الفم الممزق كان بحد ذاته تعذيباً مضنياً.

تجدر الإشارة أخيرا أنهم قد أخذوا أفسانة من زنزانتنا قبل إعدامها بعدة أيام ولا أعلم ماذا فعلوا بها في هذه الأيام سوى أننا سمعنا خبر إعدامها فيما بعد.

انقضت فترة على المرة الأخيرة التي سمعت فيها صوت تهيمنة وهي تتشاجر مع الحراس وليس لدي أي خبر آخر عنها، إذ لم تعد تجيب على صوت الصفير المتفقين عليه أيضا، أخذوني للتحقيق وكنت لا أعلم أنها المرة الأخيرة. كانت عيوني معصوبة كالعادة غير أنني أزحت العصبة قليلا بحيث أرى وجه كلا المحققين. كرروا علي الأسئلة السابقة فأجبت مجدداً بنفس الأجوبة، رأيت من تحت العصبة إشاراتهما دون ان يظنا أنني أراهما، ثم قالا لي إن تهيمنة اعترفت بكل شيء وإن فلان وفلان كانا على اتصال بك. عرفت أنهما يقولان ذلك تمويهاً، ولكن لأجل هذا تذرعت بحجة كي أستطيع أن أجبرهم على أن يواجهونني بـتهيمنة، فقلت هذا كذب وأنتم تقولون هذا من تلقاء أنفسكم وإلا أحضروا تهيمنة واسألوها. بعد الإشارات بينهما والتشاور قال أحدهما أنها نُقلت إلى مكان آخر، ثم سألني هل تعرفين خطها؟ أجبت نعم فجلبوا محضر التحقيق معها. كان خط تهيمنة وكان مكتوبًا فيه نفس المعلومات الوهمية التي طلبوها مني قبل ذلك، وقد كتَبَت أسماء مزوّرة دون ذكر اسم العائلة، كما رسمت مخططا للبيت بشكل مربك ومثير للسخرية، فثبت لي عندها أن المحققين لا يعلمان شيئاً ويكذبان. فقلت بصوت يُثير الضجة: هذا كذب أنا لا أعرف هؤلاء الأشخاص. يجب أن تحضروا تهيمنة. قالا اسكتي! انهضي واذهبي سنحضر تهيمنة إلى هنا لتواجهينها ثم نعاقبك، ولكنهم كانوا يكذبون. وبعد فترة نقلوني إلى الردهة الجماعي رقم (246)... ولم يُحضِروا تهيمنة بالطبع !

الفصل الثالث

السنة الأولى في السجن

الانتقال إلى السجن الآخر

جرت العادة أن يأخذوا المساجين الموجودين في الردهةردهة رقم (209) إلى المحكمة ثم ينقلونهم إلى السجن، لكنهم لم يتبعوا هذا الأسلوب معي، إذ نقلوني من هذا الردهةالردهة في شهر كانون الثاني أو شباط إلى الردهةالردهة رقم (246) أسفل الغرفة (4. كنت طوال ثلاثة أشهر تقريباً في الردهةردهة (209) ولم تكن لدي زيارات خلال هذه الفترة، لكن عائلتي كانت تعلم بمكان وجودي عن طريق الأشخاص الذين أطلق سراحهم.

الدخول إلى الردهةالردهة (246)يقتضي المرور برواق في أعلى السلم ثم النزول إلى الأسفل ما يقارب 20 درجة سلم حتى نصل إلى مقر الحارسات مراقبات السجن الذي كان معروفًا بـ(قسم إدارة السجن). أما باب السجن فكانوا في الأغلب يقفلونه إلا في الحالات التي كانوا يريدوننا أن نذهب فيها إلى باحة السجن. أما بالنسبة للغرف فقد كانوا يضعون فيها عددا من السجناء يعادل خمسة أضعاف استيعابها، الأمر الذي كان ملفتًا في أول وهلة لأن الأزدحام كان مخيفًا.

هذا الوضع كان يفرض على السجناء الوقوف في صف طويل بانتظار دورهم أمام المرافق الصحية التي تشمل ثمانية مرافق كانت اثنان منها فقط صالحين للاستفادة منهما أما البقية فكانت خارج الخدمة. ومن المعروف ما معنى وجود اثنين فقط من المرافق لما يقارب خمسمئة سجين. عندما دخلتُ السجن كان الجميع يسلّمون أو يردّون السلام، فاضطررت إلى العبور من فوق الأشخاص كي أصل إلى الغرفة(4).

دخلت ووضعت أغراضي القليلة في الزاوية وخرجت للبحث كي أجد أحد أصدقائي، رأيت (أفخم) واقفة في صف المرافق ولكنها لم تُظهر أي رد فعل أمامي وأنا أيضًا فعلت ذلك،

وكانت أفخم إحدى الأخوات اللواتي رأيتهن في المستشفى أو اللجنة، كما سبق أن حَضَرَت إلى بيتنا الذي كان يُستخدم لعقد الجلسات. بعد عدة دقائق تعقبتني فقبّلتها، وبادرتني بالقول: انتبهي، أنا لم أكشف عن أي شيء وهم لا يعلمون عني شيئا. وأخبرتني أنها كانت حاملاً حينما اعتقلت ولكنها اجهضت جنينها من شدة الضرب الذي تعرضت له، وحذرتني من أجواء الردهةالردهة والجواسيس وبينت لي الأشخاص المشكوك فيهم.

موقف تهيمنة و..إعدامها

حينما كنت في الردهة جاءت نحوي طالبة مدرسية وقالت: ناداكِ شخص بهنكامة، هل أنت ممرضة؟ فأجبت: نعم. فسَرّت بذلك وسألتني ثانية: هل أنت صديقة تهيمنة؟ قلت بسرور نعم، هل لديك خبر عنها؟ فردت علي بلا أية مقدمات: إنها أعدمت! لحظتها شعرت كأني سقطت دفعة واحدة من أعلى مرتفع إلى الأسفل ولم أشعر بأرجلي تحملني، ثم أصابني الدوار لعدة لحظات وكنت مذهولة. شعَرَت الفتاة بعدم ارتياح وقالت ظننتك تعلمين بهذا. تمالكت نفسي وقلت لا، أنا بخير، قولي لي كيف حصل ذلك وأنتِ من أين تعرفينني، قالت أسمي مهشيد وكنت مع تهيمنة في زنزانة واحدة، وأذكر كيف أنها حين غسلت ملابسها في أحد الأيام وجلبتها من باحة السجن وارتدتها وضَعَت يدها في جيبها وقالت باستغراب ما هذا؟ فأخرَجَت ورقة صغيرة مطوية وقرأتها ثم ابتسمت وهزت رأسها قائلة (هنكامة)! أنتِ وضعت هذه الرسالة؟ ثم مزقتها بعد أن قرأتها وألقتها في المرحاض كي تتخلص منها، وعادت لتقول: هنكامة صديقتي وكانت قلقلة علي كثيرا فوَضعَت لي هذه الرسالة في جيبي.

وتابعت تتذكر أن تهيمنة كانت جريئة وشجاعة ومرحة، ومرة قلّدت صوت الضفدع لكي تَضحِك امرأة جرى اعتقالها، ولم تكن قلقة جدا عندما جاؤوا وأخذوها وقاموا بجلدها ثم احتجزوها واقفة حتى الصباح في الجو البارد. ولماعادت الى الزنزانة كانت ترتجف وهي شاحبة اللون، كان محققها يعاملها بقسوة ويؤذيها ولا أدري بالضبط ما الذي كان يريده منها. وقد جاء يوماً إلى الزنزانة وفي يده ورقة وقال لها إما أن تتعاوني معنا في التحقيق أو

تأخذي هذه الورقة وتكتبي عليها وصيتك. ابتسمت تهيمنة ثم قامت دون أن تتفوه بكلمة واحدة وأخذت الورقة من يده وعادت للجلوس. انفعل المحقق كثيراً وركلها عدة ركلات بقدميه وشتمها وخرج من الزنزانة وأغلق الباب بقوة. لهذا كتبت تهيمنة وصيتها بنفس الابتسامة وودعتنا جميعاً، ولم تمض ساعة على خروجه حتى ساقوها إلى الإعدام.

لهذا أدركت بعد هذا الكلام لماذا كنت لا أعلم شيئاً عنها طوال شهر. ومع أنني كنت أتوقع إعدامها إلا أنني لا أستطيع أن أصدق أنها أعدمت. ربما كنت أريد أن أعزي نفسي بهذه الصورة، لذلك لم أصدّق غياب تلك الحركة والحيوية والمحبة والإبداع عن التواجد بيننا.

هذه النتيجة دفعتني إلى المقارنة كيف أننا في مهنتنا نبذل كل المساعي لكي يبقى المريض على قيد الحياة لفترة أطول حتى لو كان يعاني من مرض عضال أوفي آخر لحظات حياته. أما بالنسبة للنظام فإن خيرة الشباب الذين يتمتعون بالصحة والسلامة يجري قتلهم وتمزيقهم إربا بدافع الحقد الذي تبثّه الأفكار الظلامية القائمة على التكبر والغطرسة وحب التسلط والتي ينادي بها العجوز الدموي المعروف باسم (خميني)، لماذا...لماذا؟.... وكانت لماذا هذه ليس عليها جواب.

فاطمة الصغيرة: لا أريد أن أموت

بعد دخولي إلى الردهةالردهة الجماعية بيوم أو يومين جاءت فتاة صغيرة السن وكانت مفعمة بالطاقة والحيوية فسألتني: هل جئت من الردهةالردهة (209)؟ قلت: نعم. فسألتني: هل تعلمين شيئاً عن والدتي، اسمها طلعت؟ فجأة تذكرتُ قلق الأم طلعت عن ابنتها الصغيرة فاطمة فسألتها: هل أنت فاطمة؟ فجأة تعلقت بعنقي واحتضنتني سائلة: هل تعرفي أمي؟ هل رأيتها؟ كانت تتكلم باضطراد وتكاد تخرج من ثيابها فرحًا. كانت تبدو أصغر من سنها بكثير، قلت لها لقد أُطلق سراح والدتك وكانت قلقة عليك وبالتأكيد إنها تبحث الآن عنك. قالت اعتقلوني بعد يوم واحد من اعتقال والدتي وأحضروني إلى هنا. إن محققي سيئ جداً معي، ويقول لي سأُعدِمُك. قلت إنه يريد أن يخيفك. وإذا أردنا الحقيقة تُعدّ فاطمة أصغر بكثير من أن يجري إعدامها بتهمة غريبة لا علاقة لها بها، أو أي تلفيقة كاذبة يمكن

أن يسوقها محقق أحمق فقط بممارسة الرياضة في المدرسة أو أي كلام كاذب كان من الممكن أن يقوله محقق أحمق... وهذا ما حصل.

تعلقت فاطمة بي كثيراً، إذ كانت لا تفارقني وكنت أشعر أنها تريد أن تملأ فراغ حاجتها لوالدتها بالاقتراب مني، كانت تتحدث لي وتمازحني وتشكو لي آلامها وتتشاور معي وتنام بجنبي وتأخذ يدي وتضعها على صدرها إلى أن تنام. وخلاصة القول أنها كانت لا تتركني أبداً، لقد أحببتها وكنت أدرك حاجتها وحاولت جهدي مساعدتها. و في كل مرة يأخذونها للتحقيق، كانت تعود وتخبرني أن المحقق يهددها دائماً، ولكنها استمرت كالمعتاد في تمردها الطفولي، ولهذا عمدت الفتيات القريبات إلى مناداتها بـ(فاطمة موش) وموش في اللغة الفارسية تعني الفأر، لأنها كانت كالفأرة صغيرة وسريعة في الجري وكذلك لأن أسم عائلتها كان قريباً من ذلك (فاطمة موشايي).

قبل ظهر أحد الأيام قرأوا عبر مكبرات الصوت أسماء كل من زهراء حسامي وفاطمة موشايي وسجينة أخرى. فور سماعي أسماءهن وخاصة اسم فاطمة هبط قلبي مرة واحدة على أثر الصدمة. لم أستطع أن أصدق الذي سمعته، نظرت إلى الأخريات لأرى هل الذي سمعته كان صحيحًا؟ نعم، لقد خيّم صمت صاخب في السجن لأن الجميع كانوا على علم بأنهم سيأخذون أصحاب هذه الأسماء التي قرأوها إلى الإعدام. فقامت زهراء مع الفتيات اللواتي كن يبكين بصمت وودعت الجميع. كانت طالبة في كلية العلوم الصناعية وهي أخت قوية وهادئة الأعصاب وكانت تُسَر دائماً من كلامي ومزاحي وتشجعني باستمرار على أن لا يخيم الصمت علي وأحاول المحافظة على معنويات الفتيات الأخريات. وعلى هذا الصعيد مارسنا أعمالاً جماعية، كمسابقات قراءة الشعر ومن أمثال هذا. كنت لاأستطيع ان أتقدم، فتقدمت هي وحرّكتني قائلة: لا يحق لك أن تبكي، فمسحت دموعي وقالت: تذكري يجب أن تضحكي دائماً ولا تتركي الفتيات صامتات، لا تنس هذا، يجب أن لا يرى العدو بكاءنا، **ثم** ذهبت.

أما فاطمة.... فقد رأيتها تحمل حذاءها بيدها وتجري بسرعة في حين كانت تمسك عباءتها بقوة، وجاءت إلى غرفتنا، ثم ركضت نحوي بسرور كبير وتعلقت برقبتي بتلك السواعد الصغيرة وقالت: سنذهب، نُقلنا إلى سجن (قزل حصار) كنتُ أتمنى أن تأتي معي أيضا. فحاولتُ أن أبتسم. قلت نعم ستنتقلين إلى سجن (قزل). فخرجت من الغرفة وركضت نحو قسم إدارة السجن. لم يعد باستطاعتي أن أذهب خلفها وأنظر إليها، وعلى الفور سمعت أصوات بكاء النساء المتداخلة اللاتي كن يناديها باستمرار. استندت خلف الباب إلى الجدار وجلست ولم يعد باستطاعتي أن أمنع نشيج بكائي الذي كاد يخنقني. لم أستطع أن أفهم لماذا أفرغ المحقق الجلاد أحقاده الحيوانية على فاطمة الصغيرة. في الوقت الذي كانت فاطمة تركض نحو قسم إدارة السجن، أصابها الشك بسبب الصمت والحزن الذي خيم تلك اللحظة على الفتيات وقبل الوصول إلى باب قسم إدارة السجن عادت ووقفت ونظرت بتمعن إلى السجينات وانتبهت دفعة واحدة إلى الحقيقة. سمعت في لحظة واحدة صوت صراخها المرعب (لا! لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت!) ثم فقدت وعيها وسقطت على الأرض. كانت أصغر من ذلك بكثير كي تواجه الموت. أنها لم تذق بعد طعم الحياة. سحبتها وحوش خميني بحالتها تلك وهي فاقدة لوعيها وتركوا وراءهم صراخ النساء وهن يرددن أسمها ويصرخن: (فاطمة!فاطمة!.....لا.....لا.....!) وكنت أنا أيضا أصرخ في داخلي لماذا أيها الجلادون تريدون إعدام هذه الفتاة الصغيرة التي لا ذنب لها حتى بموجب قانونكم العائد إلى عهد جنكيز والتتر؟ ما الذي فعلته؟ أيها الجلادون، ما زالت فاطمتي الصغيرة بحاجة لمحبة ورعاية وعطف الأم، إلهي لماذا....؟ لماذا.....؟.

لا يُدرك معنى السجن إلا من يدخله

لحظات الإنسان في السجن لا تشبه أية لحظة في حياته الطبيعية (العادية)، ويبدو أنه يدرك فيها معنى آخر للإنسان والوجود والحياة والموت والظلم والعدالة والشرف والحب والحقد و.... والخلاصة أنه يفهم معنى كل شيء، بينما لا تستطيع أن تدرك هذه اللحظات وتفهمها

في أي كتاب أو فلم أو حتى كل العمر الذي تقضيه. تستطيع في السجن فقط إدراك معنى كل هذه الأمور.

إن لحظات السجن مؤلمة عندما لا تستطيع أو لا تريد مثلا أن تقبل بأن فاطمة الصغيرة قد أعدمت، فتناديها ولكنك لا تسمع جواباً، مع أن صوت ضحكاتها ورؤية نظراتها البريئة يشكلان الحقيقة الحية التي تتحرك أمام عينك، وتبدو كما لو كنت تراها في الحقيقة، إلا أنك عندما تمد يدك لتلمسها تختفي وعندما تريد أن تضمد جروحها بمسحة على ضفائرها وتمسح دموعها تنسى أنها غير موجودة.وعندما تشعر في الحلم أنها تحتضنك بسواعدها الصغيرة في الحقيقة تعتقد أن ما شاهدته عندما أخذوها للإعدام ليس إلا مجرد كابوس. أما إذا أردت أن تتأكد من وجودها فتمد يدك لكي تلمسها تشعر كأنك تسقط من مكان مرتفع جداً في واد عميق فتواجه الحقيقة المرة !

لا ! الحقيقة المرة تقول أن فاطمة قد رحلت وأُعدِمت. في أي قبر يا صغيرتي ترقدين الآن؟ في أحضان من تضعين يديك وهل أصبحت لا تخافين؟ لقد أصبحتُ في حيرة لأنها غير موجودة بيننا وجلسَت مكانها زهرة أخرى سترحل غداً أو قبل ذلك. ولكن الغريب أننا حينما نمشى في باحة السجن الضيقة كنت أتخيل أنها موجودة أمامنا أو بجوارنا، ولا أستطيع أن أشعر بأنها غير موجودة ولو أن الحقيقة تقول خلاف هذا. إن هذا من لحظات السجن التي لا يستطيع أن يفهمها أي إنسان إلا من كان فيه.

لقدكان قفص السجن مزدحماً جداً، فكان الجميع مضطرين للنوم بالتناوب وبجوار بعضهم مثل سمك السردين. ولكن على الرغم من ذلك لم يكن المكان يتسع للجميع فتبقى مجموعة منهم مناوبة في حالة وقوف أو جلوس إلى أن تستيقظ مجموعة أخرى لكي يناموا مكانها. وكنا نعطي الأمهات والجريحات مكاناً أوسع في زاوية الغرفة. وعلى أية حال كان هذا الوضع لا يَفرِق كثيراً لأننا كنا أساسا قيد التعذيب النفسي بصورة جماعية.

بالإضافة لذلك وكمثال عليه، كانوا في الساعة الرابعة فجرا يبثون عبر مكبرات الصوت نواح آهنكران المقزز والمثير للاشمئزاز بهدف إفزاع الجميع وإيقاظهم من النوم. وكانت

الفتيات يشرعن بالبكاء خوفاً من ذلك ولا تهدأ أعصابنا ألا بعد عدة دقائق. وفي النتيجة كنا نضطر إلى وضع الشراشيف أو العباءات على آذاننا ووجوهنا لكي نحاول النوم ثانية، علما بأن هذا الصوت المقزز كان يستمر بصورة متواصلة حتى الليل.

الوضع الغذائي في السجن لا يمكن تصوّره

في هذه الظروف أمضى أغلب الذين كانوا ينقلون إلى السجن فترة التحقيق التي كان من المفترض أن تكون طبيعية نوعاً ما، في وضع مغاير تماما. فعلى سبيل المثال بصدد الطعام كنا نعيش تحت ضغوط كبيرة، إذ كنا دائماً نعاني من حالة جوع مستمرة. حيث كانوا يعطوننا مقدارا بسيطا جدا من الطعام حتى نسد رمقنا ولا نموت جوعاً. على سبيل المثال كان الفطور عبارة عن قطعة صغيرة من الخبز وعشرة غرامات من الجبن (بحجم مكعب السكر) وقدح شاي صغير خفيف وفاتر. والأنكى من ذلك أنهم كانوا يحجبون عنا متعمدين كل يوم واحدة من هذه المواد، فيوم الجبن ويوم آخر الخبز ويوم ثالث السكر. وهكذا كانوا لا يتركون في متناول السجناء حتى هذا الفطور القليل دون أن يُصادروا جزءا منه.

أما بالنسبة للغداء والعشاء فلم يكن وضعهما أفضل من هذا، فكان طعامنا الأرز الذي لم يكن يُطهى بصورة جيدة أو مقدار من الحساء الخفيف كالسائل، ماء لحم بدون لحم وكل هذه المواد كانت تعطى بمقدار قليل أيضا. وكذلك كنا نفتقر إلى الملاعق والأطباق وغيرها من الإمكانيات الأخرى. وجرى استبدالها بأواني كبيرة كانت كل واحدة منها مخصصة لعدة أشخاص. وبما أن عدد السجناء قابل للزيادة فقد كان أحد مسؤولي السجن يقول للسجناء على سبيل المثال أنت في قصعة فلان وأنت في قصعة عِلاّن.. وهكذا. أي كان يقوم بتقسيم الأشخاص على أساس أواني الأكل الموجودة فنضطر إلى أن نتناول الطعام بأيدينا أو نقوم باستعمال ملعقة واحدة بصورة مشتركة وقد اعتدنا على هذا الشيء.

في إحدى المرات جلبوا لنا أواني الأكل على اعتبار أنها تحتوي دجاجا مع الأرز، ولكننا لم نجد إلا قليلا من جلد الدجاج. وليس ذلك فحسب بل كان هذا الطعام مسموماً، أو أنهم

عمدوا إلى وضع شيء ما فيه. ففي الساعات الخمس التي تلت ذلك أصيب كل الخمسمائة شخص بتسمم حاد وظهرت عليهم أعراض إسهال وتقيؤ شديدين. فتأزم الوضع جداً لأنه لم يكن يوجد في السجن إلا مرحاضان وكان الجميع واقفون صفاً أمام المرافق الصحية في حالة طوارئ شديدة منتظرين دورهم. وبالتأكيد كان أصحاب الحالات الحرجة لا يلتزمون بدورهم فكان يضطر البعض ممن حالتهم أقل حرجا إلى إعطاء دورهم لهم، ومع ذلك أصبحت حالة بعض السجينات على وشك الموت.

لم يأخذ الجلادون القضية في البداية بجدية لكنهم حينما رأوا أن المرض قد أصاب جميع السجناء في كل الأقسام وأصبحت الحالة مثيرة للقلق أقدموا بعد عدة ساعات على مساعدة المصابين ولكنهم لم ينقلوهم للمستشفيات بل اكتفوا بعدة أشخاص كانت حالتهم حرجة جداً. أما البقية فقد ظلوا داخل السجن وأعطوهم كمية من اللبن والأدوية، وهكذا بقي وضع عدد منهم بين الموت والحياة لعدة أيام وثمة عدد آخر توفي دون أن يجري إحصاءهم بدقة.

أما الوضع الغذائي للأطفال ولاسيما الرُّضّع فلم يختلف عن وضع الطعام، بل مزريًا أكثر بالنسبة لهم. وعلينا أن نتصور كيف كانوا لا يعطونهم حتى حليباً جافاً. وكانوا يقولون من الأفضل أن يموت أطفال المنافقين مما أضطر الأمهات البائسات إلى إعطائهم شراب الماء والسكر وثريد الخبز وسوائل الأطعمة، فأصيب الطفل أحمد رضا الذي يبلغ عمره سنة واحدة بمرض السلّ (التدرن الريوي) فاضطروا إلى تسليمه لجدته.

وخلاصة القول أنهم كانوا لا يريدون تسليم الأطفال إلى عوائلهم لأن والديهم كانوا ضمن الأشخاص الذين اختُطِفوا خلال حملة الاعتقالات في الشوارع وكان يجب ألا تعلم عوائلهم بذلك. وهكذا أدركتُ فيما بعد أن عمل النظام هذا يجعل صلاحياته مطلقة ويمكنه بهذا الأسلوب اعتقال أي شخص ثم إعدامه. ولو كانوا يخبرونهم منذ بداية اعتقاله، لما امتلكوا هذه الصلاحيات المطلقة، وكان هناك الكثير من الأشخاص الذين اختطفوا ولم يعثر على أثر لهم ثم أعدموا بأيدي الجلادين.

.. والوضع الصحي أسوأ وأسوأ

في شهر شباط أو آذار سنة 1981 قطعوا عنا الماء الساخن الذي كان يُعطى لمدة ساعتين أسبوعياً متذرعين بوجود خلل فني في السخانات. واعترضنا على ذلك كثيراً ولكن دون جدوى. واستمرت هذه الحالة لمدة شهرين كنا نعاني خلالها من برودة الماء، خصوصا وأن الجوّ في إيفين بارد جداً يكاد يصل إلى درجة التجمد بحيث لا يمكن غسل إناء واحد، لأن أصابع اليد تتجمد من البرودة وتزرق، فكيف إذا وصلت الحالة إلى الحمام والاستحمام. لهذا السبب انتشر القمل في كل السجن فاضطررنا لمواجهة هذه الحالة بمبيد (د.د.ت) وبدأنا برشه على رؤوسنا وملابسنا لأن القمل ملأ كل أجسادنا من الرأس حتى القدم.

كان من الطبيعي ان يكون هذا الوضع مؤلماً اكثر بالنسبة للأطفال ولحديثي الولادة والنساء الطاعنات في السن إذ أدى ذلك إلى تشقق جلد الصغار. فاعترضنا عدة مرات احتجاجاً على هذا الوضع المزري ولكن دون فائدة تذكر. بل أقدمت المراقبات علينا الى السخرية منا قائلات "اذهبن وقاومن"! فتم الاتفاق على أن تقوم النساء اللواتي لديهن زيارات بإخبار عوائلهن بهذه القضية. فطرحن جميعاً وفي آن واحد وتم إخبار العوائل بقضية قطع الماء الحار وحالة انتشار القمل فأقامت العوائل تظاهرة واشتكوا بصورة جماعية في كل مكان واحتجوا على ذلك.

وبعدما اكتشف الجلادون أن هذه القضية تسربت إلى خارج السجن اضطروا إلى فتح الماء الساخن. ولكن ثمن هذا النصر كان باهظا بالنسبة للسجناء وكنا نعلم جيداً بأننا سندفع ثمن ذلك لأنهم قد عذبوا وأعدموا الكثير من "العقول المدبرة لهذا العمل" حسب تعبيرهم. وكان هدف النظام من هذه الأعمال إحباط معنويات السجينات ولهذا كان يبدو أنهم يتلذذون حينما يلحقون الأذى والعذاب بهن بسائر أساليب وأدوات الضغط التي وصلت إلى حد منع الزيارات والطعام والدواء وحتى حليب الأطفال بل عدم إعطاء المصاحف والكتب الدينية وحتى صحفهم. وأيضا منع السجينات من التحدث مع بعضهن بحجة أنهن قد شكلن تنظيماً وغير ذلك من الحجج الأخرى.

سجينات طاعنات في السن

حتى المجاهدات المسنّات لم توفرهن آلة الإجرام

كان بين السجينات عدد من السيدات الطاعنات في السن اللواتي لم يكن بإمكانهن الاهتمام بأنفسهن. فتم اعتقالهن بذريعة امتلاكهن رؤوس أموال. بينما الحقيقة أنهن إضافة إلى كونهن أمهات مجاهدات أو مجاهدين، أو لأنهن كن ذوات فعالية ونشاط.

إحدى هؤلاء كانت السيدة كتبي التي كانت تهمتها امتلاكها رأس مال كبير. لكنه تبين في الحقيقة أنهم طمعوا بأملاكها وعقاراتها. وحتى لا يؤول شيء منها إلى ورثتها قاموا باعتقالها وأحضروا هذه المرأة المسكينة إلى السجن، ولم تكن قادرة على الاهتمام بنفسها وتدبير أمورها في السجن المزدحم الذي كان يفتقر لأبسط الشروط الصحية والمعيشية.

خاصة لمن يكن الماء الحار موجوداً إلا مرة واحدة في الأسبوع، وكان الماء ساخناً لمدة ساعتين فقط. ولهذا السبب كنا نرسل إلى الحمام خلال الساعة الأولى الأطفال والأمهات والعجائز لأن الماء كان أكثر حرارة ثم يذهب الآخرون. وكان يعطي لكل (30) شخصًا عشرة دقائق تقريباً من الوقت للاستحمام.

على أيّة حال كانت مهمة متابعتها والاهتمام بشؤونها في هذه الظروف عملاً مضنيًا، خصوصا وأنه في حالة عدم الاهتمام سوف تنبعث رائحة كريهة من جسدها، فكيف يمكن ترتيب وضعها في ذلك المكان المزدحم جداً داخل السجن، كونها امرأة طاعنة في السن تبكي وتئن باستمرار وتتضرع إلى الله بالدعاء: (إلهي أسألك النجاة!).

ولما وصل وضعها إلى الرقود في الفراش في حالة احتضار، وبدا أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة قامت الأم (تواناييان فرد) بوضعها باتجاه القبلة وبدأت بقراءة القرآن فوق رأسها، وذهبنا فوراً وأخبرنا مراقبات السجن لكنهن لم يعرن الموضوع أية أهمية فاضطررنا إلى

الصراخ والسب وهجمنا على غرفهن فخفن وحضرن عندها وقمن بنقلها إلى المركز الصحي وبعد عدة أيام تحسنت حالتها قليلاً فأرجعوها مرة أخرى إلى السجن.

ومنذ ذلك الحين لم تعد هذه العجوز المسكينة تأكل بعدها أي شيء قط. ربما كانت تريد أن تموت أو أنها لا تستطيع الأكل. ولكوني ممرضة كانت مهنتي تشدني إليها أكثر كنت أبقى بجانبها وأعتني بها حتى لا تشعر بالوحدة. كنت أتألم كثيراً عليها لأنها أصبحت بعد هذه السنين من التعب بعيدة عن عائلتها في قبضة الدمويين. ومع أنها كانت في حالة احتضار إلا أنهم لم يُطلقوا سراحها، لتقضي لحظات حياتها الأخيرة على الأقل بجوار أبنائها وذويها. كنت أعتقد وهي في تلك الحال أنها أصبحت فاقدة للوعي. فوضعت قليلاً من الماء بالملعقة وسكبته في فمها الجاف، حركت شفتيها قليلاً وشعرت بالماء، ثم رفعت يدها النحيلة والمتثلجة ببطء وأمسكت بيدي ونظرت إلي قائلة بصوت خافت متعب: أسأل الله أن يجزيك خيراً، أسأل الله لي أن أموت بسرعة! فسألت الله أن ينجيها من هذا الهول.

لقد بقيت السيدة كتبي فترة من الوقت على نفس وضعها ولم تتحسن حالها. وفي أحد الأيام جاؤوا وأخذوها من بيننا ولم أدر بعدها ماذا صار مصيرها.

المتابع لحالة السيدة كتبي ومثيلاتها سوف يرى إن العذاب والألم الذي تعرضت له الأمهات المجاهدات يشكل لوحده قصة في قاموس ممارسات الجلادين الذين يكنون حقداً عجيباً على الأمهات ولا يتورعون عن إظهار أحقادهم عليهن وتعذيبهن بكل وضاعة. كنا ندرك كم كان للأمهات هيبة واحتراما في السجن، وكيف كنّ حين تخطيء مراقبات السجن في أمر ما بحق السجينات ينتفضن كدرع واق للدفاع عن السجينات. كانت الأمّ محمدي إحدى هذه الأمهات البطلات التي كان الجلاد لاجوردي يكن لها حقداً عجيباً، وكان لا يتغاضى عن أي شيء لأجل إهانتها وإلحاق الأذى بها. لأن أبنها إبراهيم ذاكري كان من المسؤولين وكادر من كوادر مجاهدي خلق، ولأنها كانت تعرف سوابقه أيضًا وتحقره أمام كل السجناء وتتحدث معه بكبرياء. ولهذا كان لاجوردي يتفادى الإلتقاء معها في حضور السجينات. وكانت تقول له: "يا أسد الله! هل تتذكر أنك كنت في الماضي تبحث عن فخر واعتزاز

تجلبه نظرة مجاهدي خلق إليك كإنسان، أو حديثهم معك ولو بكلمة واحدة؟! ما الذي حدث الآن حتى تصول وتجول وتذبحهم كما كان يفعل يزيد؟ فاخجل!".

في إحدى المرات عندما كانت الأم تصلي جاءت إحدى النساء من الحرس النسوي،وهي تدعى راحلة وكان يقال إنها بنت الملا موسوي تبريزي. فبدأت تصول وتجول في الردهةالردهة وحين مرورها من أمام الأم خاطبتها بما لا يليق وانتقدت صلاتها، فما كان من الأم محمدي إلا أن أنهت صلاتها وقامت بحمل حذائها والهجوم نحوها صارخة "أيتها البنت القذرة هل أنت تعلّميني الإسلام؟!" وركضت وراءها فقامت الحارسة راحلة بفتح باب السجن لها وهربت مذعورة وهي تجر وراءها أذيال الهزيمة.

أصرّالجلاد لاجوردي على تعذيب الأم شخصياً. وأعدمها بسبب مقاومتها واعتقادها العميق بأهداف مجاهدي خلق. وكان حقده شاملا سائر الأمهات المجاهدات اللاتي كن على علم بخلفياته وماضيه وكن يفضحنه بكل جسارة وشجاعة ولهذا تعرّضن لشتى صنوف التعذيب دون أن تتنازل أي واحدة منهن عن أهدافها والتزامها مع مجاهدي خلق. وهو نفسه ـ لاجوردي ـ الذي تجاوز كل حدود الوضاعة عندما قام بتعذيب كل من الأم محمدي والأم كبيري.

لم أر (لاجوردي) عن قرب لكنني رأيت شكله القبيح في الصورة أو من بعيد في حسينية إيفين. وأذكر أنه جاء ذات مرة إلى ردهتنا دون أن أعرف السبب. ولم يتوقف عند المرور على كل غرفة عن إطلاق الأكاذيب مع التهديد والوعيد. ولما وقف أمام باب غرفتنا استطعت أن أراه عن قرب. وأقسم أنني لم أر حتى الآن أي كائن حي بحجمه المثيرللكراهية حتى في الأفلام.

كان قبيحاً ومخيفاً وعندما رفع نظارته لينظفها رأيت عيونه مليئتين بالدم القذر. كانت نظرته لا توصف وقد بحثت كثيراً وراء كلمة أو جملة لأصفه بها لكني لم أجد. كان مثل الأفعى مثيراً للاشمئزاز. كانت والدتي تقول دائماً لا يوجد إنسان بهذا القبح قط لكن الله عز

وجل يبين صفة الإنسان في وجهه. كان لاجوردي النموذج الوحيد الذي يثبت كلام والدتي. فهو في الصفة والمظهر أيضًا لم يكن إنساناً ولكن كان وحشاً، أخزاه وفضحه الله عز وجل.

دجل وتزوير في تمثيلية "الإرشاد"

في هذه الأثناء كان الذهاب إلى الحسينية ضمن فقرات برامجنا المسائية القسرية حيث كان يُخلى كل السجن، وإذا تخلف أحد عن الذهاب يكون مصيره واضحاً. الحسينية في السجن كانت من اختراعات ودجل (لاجوردي) ذاته.

لقد أطلق هذا الجلاد على السجن ومكان المجزرة الرهيب (أيفين) اسم الجامعة. كان يريد أن يخدع الناس ويوحي لهم بأنه رئيس الجامعة وليس جلاداً، وبالنتيجة أصبحت (حسينية أيفين) إحدى كليات هذه الجامعة! وكانوا يقومون أثناء الليل بإخراج السجناء بالقوة من الردهات لكي يستمعوا على سبيل المثال إلى أحد المعممين الشباب الذي يريد النقاش والمجادلة بحرية معهم وإرشادهؤلاء "المغرر بهم" حسب تعبيرهم إلى الصراط المستقيم، أي حتى نصبح عملاء وجلادين لهم.

كانت السجينات ينظرن بأعصاب باردة فقط ولم تتفوه أي منهن ولو بكلمة وكن لا يوجهن إليه أي سؤال، رغم محاولاته جرّ إحداهن للتكلم معه. لذلك كانوا يوعزون لأحد أتباعهم أن يسأل ويسخّن الجلسة كي يمهد الطريق لـ "الملاّ المعمم" ولكن كان دون جدوى.. وبعدما رأوا أنهن لا يبتاعون شيئا من دكان الملا ويكرهنه بشدة، ذهبوا واستبدلوه بشخص دون عمامة لعله يكون أقل مكروهية لدى السجينات.

ولما كان أولئك الحمقى يظنون أنهم يتعاملون مع أناس من أمثالهم، لا مع من اختاروا طريقهم بوعي، لجأوا في بعض الأحيان إلى استقدام أشخاص منهارين لكي يشاركوا في هذا الحوار.

مرة شرع لاجوردي بالتحدث في الحسينية ولم يكن حديثه يتضمن سوى السب والتنفيس عن أحقاده ضد مجاهدي خلق وشخص (مسعود)، فكان يقول على سبيل المثال: إن مسعود لم يتعرض للتعذيب في زمن الشاه. وكان يتفوه بهذه الأكاذيب مع كلمات بذيئة لا تليق إلا به.

كان يقول من شدة حقده: «أنتم تتمنون أن تكونوا سجناء سياسيين متحررين، أنتم ستموتون بهذا الحلم وإذا حاول أحد إنقاذكم سوف أنسفكم جميعاً ولن ادع شخصاً يعلّق باقة زهور على رقابكم». كان واضحاً أنه يرجح هذا الاحتمال ويخشى كثيراً من هذا المصير، ولأنه كان على علم ببمدى كراهية الناس له، طالما ردد في محاولة لأضفاء الطابع الشرعي على آلة القتل: نحن إذا قتلنا عدداً منكم ربما نكون قد اقتصصنا لدم بهشتي المظلوم! وبهذا الشكل كان يريد أن يبررالإعدامات على مجموعات من مئة أو مئتي شخص. وخلاصة القول إنه تحدث تلك الليلة بكل ما في وسعه عن أحقاده وعقده الحيوانية ولكن المتحدث الأصلي لتلك الليلة كان شيباني وزير الصحة والعلاج السابق للنظام الذي تأخر قليلاً ولهذا السبب ارتقى لاجوردي المنبر، وفي الظاهر كان شيباني قد جاء لأجل «إرشادنا»! وحينما جاء أوقف لاجوردي خطابه المليء بالأكاذيب وأعطاه الميكرفون وجلس في أسفل المنصة.

أما شيباني فأراد أن يُظهر أمام أنصار مجاهدي خلق والسجناء السياسيين أنه مثقف ومتنور الفكر وسجين سياسي في زمن الشاه وليس ملّا(معمّم) بل يختلف عنهم، فبدأ بالحديث عن نفسه واستعرض ذكريات سجنه. اغتنمت السجينات تلك الفرصة وأجبن على أكاذيب لاجوردي بلسان شيباني الذي حركناه ليسرد المزيد، فأخذ يكشف ما شاهده في سجون الشاه.

قدمنا له مذكرة قلنا له فيها بما أنك كنت سجينًا في عهد الشاه ورأيت كثيرين هناك من بينهم (مسعود)، هل تعرّض هو للتعذيب؟ ولم يكن شيباني حاضراً حينما تفوه لاجوردي بأكاذيبه قبله، فقال نعم، بالتأكيد! هو عذب أكثر من أي شخص وقاوم أكثر من أي شخص وكان من أبطال المقاومة، بقى في السجن لمدة ثماني سنوات تعرض خلالها لأشد أنواع العذاب

والعناء وهو يتسم بالذكاء والفطنة ويطالع كثيراً وله مخزون علمي كبير، وكان يتزعم الجميع في السجن ويسند كلامه بالبراهين والأدلة في الجواب على أي سؤال للتيارات الأخرى. فعلى سبيل المثال كان مسعود يعرف الماركسية بشكل لا يعرفه من يظن أنه ماركسي. وبسبب معرفته العميقة هذه عن الماركسية والإسلام كان يستطيع الرد على أسئلة الماركسيين، كما كنا نوجه إليه أسئلتنا حول الإسلام لنستفيد. لقد كان عبقرياً في الحقيقة.

هنا نفد صبر لاجوردي وفقد صوابه فقام كخنزير وحشي جريح يصيح بصوت عال، وأخذ الميكرفون وبدأ بسب وتهديد السجينات اللواتي سُررن بشهادة شيباني التي فنّدت أكاذيب لاجوردي.

أبشع وسائل التعذيب في حصة الجلد

كان في غرفتنا سجينات لهن كل ليلة حصة من الجلد،أي كانوا يأخذوهن كل ليلة إلى التحقيق ويجلدوهن بالكيبلات وكانوا يعيدوهن فجراً بأقدام دامية ومتورمة فتقوم زميلاتهن السجينات بالعناية بهن.

إن حصة الجلد هذه واحدة من أسوأ وسائل التعذيب بالنسبة لأولئك الذين ليست لديهن القدرة على تحملها، إذ يجب أن تُجلد كل يوم عددا معينا من الجلدات. وحينما يتكرر ذلك وتُجلد سياط اليوم التالي على جروح اليوم الذي قبله فإن ذلك يتطلب صلابة كالجبال. وأذكر من بين السجينات اللواتي لديهن حصة الجلد في سجننا إحداهن مينا إيزدي والأخرى زهراء شب زنده دار. ولا أدري لأي سبب قرروا ضرورة جلدهن وتعذيبهن كل ليلة.

كانت مينا فتاة يافعة بطول متوسط وشعر براق ووجه تغطيه بقع الكلف، وكانت تضحك باستمرار وتتمازح مع الفتيات ولا تدع للتعذيب آثاراً سلبية على الفتيات.أما زهراء فكانت طالبة جامعية تقول أن المحقق أحمق في الحقيقة، لأنه يظن أنه يستطيع بضربنا أن يجبرنا

على تجاهل ما نؤمن به وأن نقول للحقيقة لا! وهو لا يفهم غيرهذا المنطق. ولهذا السبب أقول إنه أحمق وبالتأكيد يعمل النظام جاهدًا ليجد أناسًا مثله، وأعتقد أن مثل هؤلاء الحمقى نادرون.

حلّ شهر رمضان ونحن في السجن. كنا نتوقع أنهم سيوقفون حصة جلد مينا وزهراء احترامًا للشهر الفضيل، ولكن ذلك لم يحصل لأنهم كانوا يستغلون الدين لمصالحهم الدنيوية. ولهذا فإن دين خميني وجلاديه لا رحمة ولا شفقة فيه إطلاقًا وهو يروّج للحقد والقسوة، الأمر الذي نراه في ممارسة المزيد من التعذيب.

ومن أبرز ما يؤكد ذلك أنهم كانوا ينادون مينا وزهراء في وقت الإفطار أي بعد يوم كامل من الصوم، ويرجعونهما أثناء وقت الفجر، فكنا نبقى حتى ذلك الوقت قلقات ننتظر عودتهن حتى ذلك الوقت وكل منهما برجلين متورتتين وعينين غائرتين ووجه شاحب. وكانتا لا تستطيعانحتى تناول السحور كما يجب. وفي نفس اللحظة التي كانتا تجلسان فيها في أي مكان ينمن بسرعة من شدة الإنهاك والأذى والألم الذي تعرضتا له. ولم يطل الوقت حتى أعدموا مينا في نفس السنة أي 1981، بينما استشهدت زهراء في مجزرة السجناء السياسيين عام 1988.

حلم ناهيد الغريب

ذات ليلة ازدحم قسم ادارة السجن فانتبهنا إلى أنهم كانوا يُحضرون سجناء جددا. وبعد ذلك جاءت اثنتان من النساء تحملان إحدى السجينات لأنها لم تكن قادرة على السير، فأدخلنها إلى غرفتنا وافسحنا لها مكاناً في الزاوية لترتاح بعيدا عن ذهاب وإياب السجينات. وكانت أقدامها دامية كل واحدة منها بحجم الوسادة. لم تُركل لكن رجليها كانتا متورتتين وممزقتين وكانت راحة قدميها ملتهبتين ة بسبب الجروح العميقة. كانت قصيرة القامة ونحيفة وذات بشرة خضراء وعينين واسعتين بلون بني جميل جداً، وكان في وجهها براءة عجيبة.

شكَرَت النساء اللواتي كن يذهبن بصورة مجاميع ليسألن عن وضعها ويرحبن بها، وكن يتحدثن معها وقد كان اسمها ناهيد إيزد خواه.

بعد أن تعرفنا عليها قالت لي أنها شقيقة مسعود إيزد خواه زوج معصومة عضدانلو. وقد استشهد شقيقها مسعود في أحداث مواجهة المقاومة لقوات الحرس. وأن معصومة التي كانت حاملاً قد اعتقلت بعد أصابتها بجرح في أعلى الفك من وجهها، ونقلوها إلى الردهةالردهة (209) ثم وضعوها قيد التعذيب. وقد مزقوا رجليها عميقا بضربات الكيبل فاضطروا إلى نقلها للمستشفى وأجروا لها عدة عمليات، كان من بينها عملية ترقيع لقدميها من أجزاء بدنها الأخرى محل الجلد واللحم المهترئ بسبب الالتهابات الشديدة الناجمة عن التعذيب المتوالي الذي تعرضت له. وكانوا لا يجرون مثل هذه العمليات عادة للسجناء الذين يعدمونهم ولهذا كنا نأمل أن لا تُعدم ناهيد.

قالت لنا أنه كان من المؤلم أن اختاروا لها مكانا بالقرب من معصومة التي كانت مصابة بفكها وملقاة على أرضية الزنزانة دون أدنى عناية. وقد ملأت رائحة الدم الفاسد الزنزانة. حتى أن المحقق عديم العطف والشفقة قام بركلها عدة ركلات وهي لا تقوى على غير الأنين. أثناء كلامها معنا لم تتوقف ناهيد عن البكاء، وكنا نحن أيضا نبكي معها. وفي النهاية أعدموا معصومة البطلة بنفس الحالة التي كانت عليها أي وهي جريح وحامل في الوقت ذاته.

لن أنسى بعد استشهادها كيف قامت ناهيد ذات يوم في الصباح الباكر وبدت مسرورة بصورة مختلفة عما كانت عليه، قالت أريد أن استحم. استغربنا جميعاً لأن الحمام ليس ساخناً وكان الماء بارداً جداً. لكنها أصرت على الذهاب، وقالت أريد أن أغتسل غسل الشهادة لأني رأيت في المنام ليلة أمس أن والدتي وضعت يدي بيد أخي مسعود وأودعتني عنده. إني سأذهب اليوم إليه. فكانت السجينات لايعرفن ماذا يقلن وماذا يفعلن لأنه كان مجرد رؤية في المنام. ولكن ناهيد ذهبت بثقة عالية إلى الحمام واستحمت بنفس ذلك الماء البارد ثم عادت فأدت صلاتها ووزعت كل الحاجيات التي عندها على النساء وارتدت

أفضل ملابسها وبقيت تنتظر، وفجأة وسط الاستغراب وعدم التصديق قرؤوا اسمها واسم (شكوه مزيناني) التي كانت تلميذة، فوثبت ناهيد بسرور وقالت أرأيتم صحة كلامي بأني سأذهب اليوم إلى مسعود؟! و..... ذهبت حيث أعدموها في نفس اليوم.

التوابون أو السجناء الخونة

كان في الردهةالردهة (246) عدد من الجاسوسات والخائنات من اللواتي يكتبن التقارير الكاذبة عن السجينات الموجودات داخل الردهةالردهة، ووصلت بعضهن الى حد إطلاق الرصاص على المحكومين بالاعدام ولم يكن يتورعن عن ارتكاب أية جريمة.

وفي أحد الأيام أبلغونا بضرورة ارتداء الحجاب في السجن لأن "الإخوان" سيأتون. وكانوا يقصدون الحراس والمحققين الدمويين، دون أن نعرف بسبب مجيئهم. وبعد عدة دقائق رأيت المحققين يدخلون غرفتنا مع امرأة كانت تضع نقاباً على وجهها، تقدمت تلك المرأة إلى الأمام ووقفت مباشرة لعدة دقائق عند (أفخم) التي كانت جالسة، وأخذت تمعن النظر من خلف النقاب الأسود في النساء واحدة تلو الأخرى، وكانت تحرك رأسها بهدوء يميناً وشمالاً وهي تنظر إليهن. قلت لحظتها في نفسي أنهم يبحثون بالتأكيد عن شخص ما، فمن منا سيكون هذا الشخص وأي من النساء سيأخذون هذه المرة إلى مفارز الإعدام أو غرف التعذيب؟

المهم، تفحص الحراس والمحققون كل الغرف بالترتيب ثم ذهبوا. قالت السجينات ممن لهن تجربة أكثر أنهم جاؤوا للتفتيش عن النساء اللواتي لم يتم الكشف عن هويتهن بعد، ذلك لأن كثيرًا من النساء لهن أسماء مستعارة خارج السجن، وحينما يُعتقلن ليس من السهل معرفة هوياتهن الحقيقية، لهذا الهدف جاء هؤلاء وبهذا الأسلوب تم الكشف عن الكثير من النساء اللواتي تم إعدامهن.

وبعد مغادرتهم قالت لي أفخم وهي لا تزال خائفة وشاحبة اللون: هل رأيتِ كيف أن الخطر تجاوزني بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى؟ إن هذه الخائنة هالة التي جاءت للتعرف معهم

ـ في إشارة إلى ذات النقاب الأسود ـ كانت من العناصر الفعالة في لجنة الطلاب أنصار مجاهدي خلق، وقد كنت جالسة تحتها مباشرة في نفس المكان الذي وقفت فيه، لكنها لم تستطع أن ترى وجهي جيداً وإلا لتمّ الكشف عني. على أية حال أريدك أن تعرفي ذلك، لأنه إذا تم اعتقالي سوف تكون هي التي أبلغت عني.

كانت صديقة هي الأخرى إحدى الخائنات والجاسوسات في الردهة. إنها فتاة سمينة وبليدة وحاذقة اللسان وهي مسؤولة غرفتنا أو بعبارة أصح جاسوسة غرفتنا. وكانت دائماً وسط النساء تتحاور معهن بصوت مرتفع وتقول عني أنني مذنبة ويجب إعدامي. هدفها من وراء ذلك أن تثبت جاسوسيتها بصورة أكثر أمام الجلادين وممارسة هوايتها في تعذيب السجينات. ولهذا قامت إحدى النساء ذات مرة وقالت غامزة من طرفها: إنهم لا يعدمون كل زبالة، فلماذا أنت قلقة بهذا القدر؟! فأضحكت زميلاتها، أما الجاسوسة صديقة فسكتت ولم تكرر هذه العبارة بعد ذلك.

القاضي والجلاّد معا في غرفة واحدة!

نادوني في أحد أيام شهر شباط سنة 1981 وأخذوني إلى المحكمة، ولأني كنت معصوبة العينيين نسيت أجواء ذلك المكان ولكني شعرت أن هناك عددا من السجناء من الأخوة والأخوات كانوا يجلسون في الممر وهم معصوبو العينيين ينتظرون دورهم في المحاكمة. وبالمناسبة، أعتقد أن الشخص الذي لم ير محاكم النظام في إيفين لا يستطيع أن يتصورها مطلقاً، ولا يتصور على وجه التحديد كيف أنهم أطلقوا على إحدى غرف التعذيب الكائنة في نفس مكان التعذيب بسجن إيفين اسم المحكمة. حتى من الناحية المادية لم يكن هناك أي فرق بين موقع الاستجواب والتعذيب وبين ما يسمى بالمحكمة المكونة من طاولة وبضع كراسي متناثرة ذكرتني بمكاتب بيع وشراء العقارات الموجودة في محلتنا أيام طفولتي. وكان يلعب دور القاضي أحد الملالي من نفس أولئك الذين كانوا يصدرون حكم الجلد في غرف التعذيب، إلى جانب محقق أو محققين كانا يحضران معه وكانا يلعبان دور المدعي

العام. لذلك حتى السجينات لم يكن يعرفن أن هذا المكان الذي أُخذن إليه للتحقيق أو التعذيب كان محكمة أيضا. ذلك لأن السجين أو المتهم كان يحضر هناك معصوب العينيين، فلم يكن يرى لا قاضي المحكمة ولا المدعي العام. فكيف إذا كانت المتهمة أو السجينة وحيدة ليس لها محام ولو بشكل صوري ولا تمتلك حق الدفاع عن نفسها، أما إذا تجرأت وفعلتها فإن نصيبها على الأغلب سيكون صدور حكم الإعدام خلال عدة دقائق.

وللدقة يمكن القول أن هذه المحاكم قد شُكلت لمجرد إبلاغ الحكم إلى السجين وقد كان يصدر بناء على تقرير المحقق و"الوضع العام" للقاضي. فإذا كان وضع القاضي جيداً يكون بإمكانه عدم إصدار حكم الإعدام. أما إذا كان وضعه على النقيض، أو صادف أن تحدث خميني وقال من جملة ما قاله "لا ترحموه"، أو قام أحد مجاهدي خلق بالبصق في وجه القاضي...، فإن صدور حكم فوري بالإعدام على جميع المتهمين وقتها يكون واجبا. أي باختصار لا تعير المحكمة اهتماما لخلفيات وأسس أي قضية معروضة عليها. ما هي الجريمة؟ من المتهم؟ وأين الملف .. الخ !

في اليوم الذي نقلوني إلى المحكمة كانوا قد كشفوا وكراً حسب تعبيرهم وقتلوا عدداً من مجاهدي خلق. ونظرا لحالة البهجة التي انتابتهم نتيجة ذلك فقد أصدروا ذلك اليوم أحكامًا بالسجن على جميع السجناء الموجودين في المحكمة تقريباً. وعندما وصل دوري حكموا علي بالسجن لمدة ثلاث سنوات. وكان لافتا بعد أن سألني "القاضي" عن الاسم والسن والحالة الزوجية، قام بتوبيخي وسألني لماذا لم أتزوج لحد الآن، وأوصاني على أنه إذا أُطلق سراحي من السجن فيجب علي بالتأكيد أن يكون أول أعمالي الزواج. ثم رجعتُ إلى الردهة وكانت الفتيات مسرورات جداً لأنه حُكم علي بالسجن ثلاث سنوات فقط، خاصة النساء اللواتي كنا نعرف بعضنا بعضا قبل السجن فاحتفلن بهذه المناسبة خفية. وهنا لابد من القول أن تهيمنة قد ضحّت بنفسها من أجلي وأجلنا جميعاً، بالإضافة إلى عدد آخر لم يجر اعتقالهن ولم يكن هذا مجرد حظ.

ما زلت لا أعرف أي خبر عن شكر وهي لم تكن موجودة في سجن إيفين لأنها لو كانت كذلك لعلمنا بذلك لأن الأخبار والمعلومات الجديدة كالإعتقالات وأسماء الأشخاص الذين أعدموا وغيرها كانت تصل عادة عن طريق النساء اللواتي يُستدعين للتحقيق أوالتعذيب، ويجري إبلاغها إلى نزلاء كل الأقفاص وفي النتيجة كانت هذه الأخبار تنقل إلى خارج السجن. كذلك كان يجب على كل سجين يلتقي بعائلته أن يتلقى الأخبار الجديدة وينقلها إلى الآخرين، وأن يوصل أخبار السجن إلى عائلته. هذا وجه مهم من أوجه المقاومة في السجون، في مواجهة استماتة العدو على الاحتفاظ بالسجين في كل المواقع دون أية معلومات، واستماتته على عدم تسرّب أي خبر من داخل السجن إلى عائلته كي يتمكن من مواصلة قمع السجناء حسب هواه، ولهذا كان على السجين في المقابل أن يناضل لأجل كسر هذا الحصار. ومن هذا المنطلق كنا نستطيع الحصول بعض أخبار النظام نفسه وأسرارالصحف أيضا وأن نفتخر بما نحصل عليه من معلومات. على أية حال ليس لدي أي خبر عن شكر.

أول لقاء

بناء على عادات سجون النظام لم يسمحوا لي بالزيارات ما داموا لم ينقلوني إلى المحكمة ولم يصدر حكم بحقي. لذلك تمكنت بعد ثلاث أو أربع أشهر أن أرى والدي ووالدتي. وبالتأكيد لا يسمح النظام بالزيارة لأي شخص كان ما عدا الأب والأم، إذ كانوا لا يسمحوا حتى للأخت أو الأخ، وكان هذا مصحوباً أيضا بضربهم وإهانتهم، فضلا عن تركهم ينتظرون خارج السجن لساعات تحت الجو البارد أو الحار وكانوا أحيانا ورغم ساعات الإنتظار الطويلة لا يسمحون لهم بالزيارة أيضا، وخصوصا لمن يحتج منهم على سوء المعاملة . أما تبرير هذه القسوة غير المبررة فقد كانت تتردد على لسان صاحب القرار والمشرف شخصيا على تفيذه وهو الحاج داود (رئيس سجن قزل حصار) حيث كان يقول لكافة السجناء: " لو لم يكن آباؤكم منافقين لما أصبحتم منافقين».

بهذا المنطق كان يؤذي الآباء والأمهات ويعمل على تحقيرهم، في الوقت الذي كانوا يشكّلون دعماً حقيقياً لنا، ويفعلون المستحيل لأجلنا ولو عرّضوا أنفسهم لخطر الاعتقال بل وحتى الإعدام ...و على أية حال، فهمت في هذه الزيارة أن شكر موجودة في سجن قزل حصار.

فنانة في الردهة لسبب لا يُصَدّق

كانت السيدة مهين بزركي إحدى قدامى العاملات في مجال التمثيل والدبلجة بالإذاعة، لكن هذا لم يمنع من اعتقالها وتعذيبها دون سبب موجب وزجها في السجن حيث القيتها في ردهتنا. وعلمت أن ذلك يعود إلى أنها قد جلبت معها من الخارج مجلة تتضمن في أحد صفحاتها رسوما كاريكاتورية عن خميني. وفي النتيجة حكم عليها بالسجن لمدة عشر سنوات، دون مراعاة كونها مسنة وتعاني من أمراض الشيخوخة. بل على العكس جرى تعرضها للتعذيب والأذى بصورة مضاعفة نظرا لكونها كانت فنانة. فأصبحت موضع إهانة وازدراء المحققين والسجانين. وللعلم إن هذه السيدة مثلها مثل أي إنسان متحرر آخر، غير أنه لم يكن لها أي اتجاه سياسي، لكنها كانت حينما ترى جرائم الجلادين تتغير وتتأثر كثيراً. ففي إحدى المرات أخذوا ثلاث تلميذات صغيرات للإعدام فلم تسيطر على نفسها وتغيرت حالتها وبدأت ترتجف وتبكي وصرخت أين الإله، وبدأت تطرح أسئلة من قبيل من يرضى بهذا العمل الإجرامي؟ كيف يمكن سوق فتيات بهذه السن إلى الموت؟. قلت لها تأكدي أن هذه الدماء لن تضيع دون حساب وسيحمل أوزارها سدنة هذا النظام القاتل. لهذا السبب لن يفلتوا من العقاب، والله شهيد على هذا وسوف يحاسبهم يوم القيامة على كل جرائمهم، وتحدثت لها عن الأمام الحسين وشهداء كربلاء كيف أن العدو قتلهم جميعاً ذلك اليوم في وسط صحراء قاحلة وتصوَّر أنه تخلص منهم وأنهى آخر أعماله. ولكن انظري بعد(1400) سنة أي شخص بقي وأي شخص زال؟ وانظري الى اليوم الذي كان فيه الناس غير الواعين يرون صورة خميني على القمر وماذا أصبحوا يرون اليوم. ألم تسمعي أن

المحققين كانوا يقولون للمتهمات الماثلات أمامهم: أيتها الملعونات، أنتن فعلتن شيئاً دفع الناس إلى شتم الإمام(خميني)! تأكدي ستمضي هذه الأيام وسوف يُسحقون.

قلت كل هذا فهدأت السيدة بزركي قليلاً ونظرت إلي ثم قالت: إنك تقولين الصواب. إنهم يريدون متعمدين أن يوصلوا الإنسان إلى هذه الحالة لكي يفقد إيمانه وأمله بكل شيء وكل إنسان بل وحتى بالله عز وجل.

سجن قزل حصار

وحدات وردهات في سجن قزل حصار

نُقِلت في شتاء سنة 1981 إلى سجن قزل حصار بسبب الزخم غير الطبيعي في سجن إيفين وعلى الرغم من أنهم كانوا يعدمون كل يوم عشرات الأشخاص، إلا أنه لم يكن لديهم أي مكان واسع آخر. ولهذا السبب اضطروا إلى أن ينقلوا الأشخاص الذين صدرت أحكام بحقهم إلى سجن آخر. جرى وضعي ضمن الوحدة رقم(3) الردهةالردهة(7). وقد علمت هناك أن سجن(قزل حصار) يشمل ثلاث وحدات. كانت الوحدتان (1و3) تخصان السجناء السياسيين والوحدة (2) كانت معتقلا للأسرى العراقيين المساكين الذين كانوا قد أسروا من قبل قوات الحرس، وكنا نسمع بين الحين والآخر صوت العيارات النارية التي تطلق عليهم داخل الردهة، ولسان حالنا يقول أي القوانين هذه التي يمكن أن يراعيها هؤلاء القتلة، فإذا كانوا يتعاملون مع مواطنيهم بهذا الأسلوب، فكيف يمكن أن يتعاملوا مع أسرى بلد آخر؟ لقد كنت أتألم كثيراً على وضعهم.

كانوا ينقلون كل سجين في البداية إلى ردهة الزنزانات الانفرادية وبعد تقييمهم لوضعه خلال عدة أيام أو أسبوع، ثم الحصول على معلومات عنه كانوا يبقونه في قفص الزنزانات الانفرادية ثم يوزعونه مع باقي السجناء الآخرين الموجودين معه على الردهات. كانت الردهة رقم (6) ردهة الزنزانات الانفرادية الخاص للرجال، والردهة (7) خاصة للنساء، والردهة (8) خاصة "لتأديب النساء"، أما الردهةان 3و4 فكانا سجنا جماعيا للنساء. ولا

أدري في الحقيقة إذا ما كانت الردهة أو السجن الجماعي للرجال في هذه الوحدة أو في مكان أخر.

نقلوني إلى الردهة (7) الذي يحتوي على رواق مربع تقع على جانبيه غرفتان كبيرتان، وفي كل جانب منه ست زنزانات الواحدة منها اوسع من عرض وطول سرير عسكري بحوالي خمسين سنتيمترا فقط ! وكل زنزانة مصممة على مايبدو لثلاثة سجناء. غير أنني لاحظت أثناء دخولي أنهم وضعوا في كل زنزانة ما يقارب (15) سجينة، أي كان في الردهة بدل الـ(36) سجينة وهو المفترض ما يقارب (200) سجينة، وكان أنصار المجموعات السياسية الأخرى في إحدى الغرف الواقعة في القسم الإداري للسجن وكان عددهم يتراوح بين (25-30) شخصاً، كنا نطلق عليهم (العلمانيين) و (غيراليساريين)، لأن غالبيتهن لم يكن لهن موقف يساري، أي معارض حقيقي للنظام، ومن بينهم أنصار الحزب الشيوعي (توده) وأنصار فدائيي الشعب الإيراني (الأكثرية) الذين كانوا مثل النظام تماماً، وكانوا يعدون أننا المسببين لجرائم النظام. أي يبدلون الجلاد بالضحية وكانت هذه قمة خيانتهم ولكننا كنا نحرص دائما على ألا نتعاطى مع خلافاتهم داخل أسوار السجون، بل نركز دوما على الوقوف في وجه النظام وجذبهم إلى صفنا، لئلا نفتح مجالا للنظام كي يستغل هذه الخلافات ويستفيد منها لخدمة أهدافه الدنيئة.

بسبب الزخم الكبير في الزنزانات كانوا يتركون أبوابها الموجودة في الممر مفتوحة فكان السجناء يتنقلون من ردهة لآخرى. أما بالنسبة للنوم فكان مكان كل سجينة معينًا مثل سجن إيفين. ولهذا كان علينا أن نضطجع بجنب بعضنا مثل السردين كي نستطيع أن ننام. لكن عددنا لم يكن بقدر عدد نزلاء سجن إيفين الذين كانوا ينامون بالتناوب، وكذلك لم يكن هنا أشخاص يجلسون أمام الحمّامات أو المرافق الصحية إذ كان الجميع يستطيعون الاستفادة بشكل متساو من تلك الخدمات. وكان النوم في أماكن الردهة المختلفة بصورة أسبوعية، أما الزنزانة والأسرة فقد أعطيناها بصورة ثابتة للأمهات والأطفال والمرضى آخذين بنظر الاعتبار سنهم ووضعهم الصحي.

إذا كان العدو يقيّمنا عند الدخول إلى السجن الجديد، نحن أيضًا بدورنا كنا نقيّم العدو، فعند دخولي إلى ردهة الزنزانات الانفرادية حاولت في البداية أن أتعرف على الجواسيس. كان مسؤول السجن امرأة خائنة أسمها سيما، وهي ذات بشرة شاحبة وناصية مرتفعة وعيون فاتحة ذات جفون منتفخة، وكانت تضع نظارتها على أنفها فتشبه بشكلها هذا أتباع (الغستابو) الذي نشاهدناهم في الأفلام. لهذا السبب أطلقنا عليها اسم كشتابو. وكان الجميع يعرفونها بهذا الاسم، وهي الجاسوسة المباشرة للحاج داود الجلاد، إلى جانب شخص أو شخصين آخرين كان يمكن التعرف عليهما لكونهما يُشبهان الحرس النسوي وكانت نظراتهما باردة وكئيبة ومليئة بالحقد. ومن المثير للاستغراب أن كل من كان يصطف ويتخندق مع خميني كان يمكن التعرف عليه بسهولة مثل خميني نفسه.

لقد رأيت أثناء الدخول إلى الردهة منصورة فتاحيان التي كنت أعرفها منذ أيام الدراسة الجامعية وقد رأيتها في اللجنة الطلابية والنشاطات المختلفة. فجاءت عندي بفرح وسُررت جداً برؤيتها. قد يكون غريبا أن يسعد الإنسان في السجن حينما يرى صديقا له أو قريبا في السجن أيضا. لكنني أعتقد أن هذا الشعور في ظل نظام خميني كان منطقيًا، أو على الأقل قابلا للفهم والإدراك. ذلك لأن الواحد عندما يرى في هذه الظروف من يعرفه، فهذا يعني أنه على قيد الحياة وهذا بحد ذاته يخفف الشعور بالأسى من هذا الذي يراه داخل مراكز الاعتقال والسجن. وهذا ما حصل، فها هي منصورة قد اعتقلت أيضا.

كنت أعرف واحدة أو اثنتين من السجينات العلمانيات اللواتي كن في سجن إيفين وقد نقلن قبلي إلى سجن قزل وكانت لي مع إحداهن علاقة وثيقة، بسبب تعرفي عليها منذ أيام سجني في إيفين وكذلك لكونها ممرضة مثلي أيضًا. وبسبب هذه العلاقة تقّرر إذا أردنا التنسيق حول موضوع ما، أو إذا كانت لدينا أي ملاحظة أن ننقلها بواسطتها إلى جماعتها. كان الموقف في سجن قزل أيضًا مثل الموقف في سجن أيفين إذ كان لا يسأل أي شخص عن ملف الشخص الآخر. وكان لا يتحدث شخص بصدد هذا الموضوع مع شخص آخر، لأن تناقل المعلومات الإضافية لم يكن غير ضروري فقط، بل كانت خطرا للغاية.

في نفس اليوم الأول لدخولي إلى الردهة كنت جالسة مع منصورة فجاءت كشتابو وقالت لي أنتِ ممرضة فتولّي مسؤولية العلاج في الردهة، لأن الممرضة التي كانت قبلك ذهبت إلى الردهة الجماعية. كنت أتصور أن هذا العمل يعتبر تعاونا مع النظام وأردت أن أجيبها على طلبها بالنفي، لكن منصورة أشارت لي بأن أقبل فقبلت. بعدها أعربت منصورة وبقية الأخوات السجينات عن سرورهن لقدومي وقلن لي: أولا، لو كنتِ لم تقبلي بذلك لوضعوا شخصا آخر من طرفهم وسوف لن يهتم بالمرضى. وثانياً، تستطيعين الآن عن طريق هذا العمل أن تترددي بين الحين والآخر على المركز الصحي للسجن وتأتي بالأخبار.

لم تكن لدينا في هذه الردهة باحة، فاضطرت السجينات إلى أن يجففن ملابسهن داخل الزنزانة الصغيرة، فكان عليهن اختراع ما يُمكّن 15 سجينة تقريباً من تلبية حاجتهن، فقمن بدق المسامير عاليا على الجدران بالقرب من السقف، وسحبن بينها حبالاً لاستعمالها في التجفيف، وقُمن باستعمال أكياس النايلون في حياكة الحبال كما استعملن أقمشة الملابس البالية لخياطة الجواريب، وغير ذلك من الأساسيات الضرورية. لكن هذا الجهد لم يعوّضهم فقدان الباحة والشمس، الأمر الذي أدى بعد حين إلى انتشار مرض الفطريات، فبدأت السجينات يعملن على عزل الحاجيات والوسائل الشخصية للسجينة المصابة بهذا المرض جانبا. ولكن هذا العمل لم يكن مجدياً بصورة فعالة نظرا لشدة الازدحام والوضع الصعب بشكل عام.

في أثناء ذلك، قالوا لي أن طبيبًا سيأتي لزيارة المرضى داخل السجن ويبدو أنه كان يأتي مرة واحدة في الأسبوع فيراجعه الأشخاص المؤكد أنهم مرضى. وعليه، كان من واجبي بصفتي مسؤولة العلاج في الردهة أن أرافقه أثناء الزيارة، وكان الدكتور(ألف) من حاشية الشاه، ثم أصبح بعد أن تم سجنه يعمل لمصلحة النظام على اعتبار أنه غدا من التوابين كما يُسمّون. حين جاء ورآني قال لي: أنتِ نفس السجينة الجديدة، أنتِ ممرضة؟ قلت: نعم، قال: هل أنتِ مستعدة لتأتي إلى المركز وتعملي هناك؟ فاجأني هذا الكلام جداً وفوراً قلت له: كلا! فنقل هذا إلى الحاج داود فيما بعد. وعلى خلفية هذه الـ "كلا" تضايقت السجينات جداً من جوابي السلبي لأن العمل في المركز كان يمثل موقعاً جيداً للنفوذ والحصول على

إمكانيات والاتصال مع كل أقسام السجن الأخرى. وكان زملاؤنا المتمسكون بمبادئهم يعملون أيضا في المركز الصحي ولكني كنت لا أعرف ذلك وقتها.

الفصل الرابع

سجن قزل حصار

غوريلا وحشية

كان الحاج داود رحماني رئيس سجن قزل حصار من الرعاع القذرين جداً، كان شغله السابق بيع الحديد. وبعد تولي خميني السلطة إنخرط في تشكيلات قوات الحرس،وقد أصبح الآن سجانًا وجلادًا لأنه أختبر جيداً في قسوته وعدواته للمجاهدين والمناضلين فعينوه رئيساً لسجن قزل حصار. إنه باختصار عديم الرحمة والشفقة وفي نفس الوقت أحمق ورجعيً.

عمد الحاج داود إلى تصنيف الآخرين حسب مقاييسه الخاصة إلى طبقات كل منهم يتعرض للأذى والتعذيب حسب تصنيفهم من قبله. لقد كان يكره أولئك الذين يرتدون نظارات ويصفهم بالعقول المدبرة، أما طويلو القامة فكان يعدّهم الحرس الشخصي للمجاهدين ويظهر لهم عداوته الحمقاء،. وكان يجنّ جنونه أو يصاب بالهستريا حيال الطلاب الجامعيين أو مجرد كلمة طالب، ويجفل من الأشخاص اصحاب العيون الزرقاء ولديه تفسير ديني لذلك، إلى جانب إدراجه الجميع في قائمة سوداء. وبين يوم وآخر كان يعَرّض بعضهم للتعذيب والأذى بأية ذريعة أو حجة.

أبرز ما يُعرف عنه أنه في أي وقت يأتي فيه إلى السجن كان يسب الجميع بذريعة أو بدون ذريعة. وكان يأخذ مجموعة إلى قسم إدارة السجن ويرجعهم بعد الضرب والإهانة. وفي إحدى المرات كانت إحدى زميلاتي في الزنزانة تعزف بالصفير لحن أغنية (مرا ببوس) أي قبّلني ولم تكن منتبهة إلى عدم جواز ذلك. في لحظتها فُتِح الباب دفعة واحدة ودخلت كشتابو مذعورة إلى السجن وقالت بصوت عال وصراخها يشبه شكلها المثير للاشمئزاز: أيتها السيدات! أيتها السيدات! ارتدين الحجاب سيأتي الحاج داود، فأسرعت كل سجينة نحو الزنزانة لتضع شيئاً على رأسها كي تكون في مأمن من النظرات القذرة وغير النزيهة

لهؤلاء الرجال عديمي الحياء. فدخل الحاج داود مع حارسه المدلل (أحمد) ووقف أمام السجينات خلف قضبان قسم إدارة السجن، وبدأ يكيل لنا الشتائم التي كان يستحقها هو. ثم قال لنا: ماذا حدث قبل قليل؟ هل تصفّرن من أجل الرجال خارج الجدار؟ أي تعال وقبلني؟ أخبَرَني بذلك الإخوان التوابون! أيتها الخبيثات، نحن نقلناكن من كل مكان حتى (من الأقطار الشاسعة) وجمعناكن هنا! أن هذا الجدار حاجز أمامكن وإلا نحن نعرف حقيقتكن! كانت السجينات يعلمن أن السكوت أفضل أسلوب كي يغتاظ (الحاج داود) الجلاد. لهذا السبب كن ينظرن فقط: أنا أيضا جعلت كلا دبّوسين كانا معي مستقيمين على شكل سنارة مستقيمة الحياكة وانشغلت بحياكة الخيوط الملونة التي كانت جمعتها من جورابي الممزقة وكنت أجيب في داخلي على شتائمه وأشعر أن قلبه يتلهف الآن كي تجيبه إحدانا ليستطيع أن يفرغ عقدة قلبه، ونحن كنا نضطره بصمتنا إما أن يأخذ الجميع للتأديب أو لا يأخذ أي منا قط وهو كان لا يريد هذا.

وفي الوقت الذي كنت تقريباً متأكدة فيه أنه سوف لن يرد أي شخص على أكاذيبه، للأسف قامت سجينتان من العلمانيات وقالتا: حاج داود ليس بهذه الصورة التي قلتم ونحن لم نكن بهذه الصفة! ولما كان هذا الموضوع غيرواضحا للحاج داود! فقد بدا أنه وصل إلى مقصده وكأنهن سكبن الماء على النار المشتعلة داخله، فهدأ وقال: (جيد أن البلابل المتحدثة قد انكشفت! أخرجا!) ثم قال ضاحكًا ومستهزئًا: (ستعودان بسرعة!) ثم أخذوهما. نحن كنا نعلم بناءاً على تجاربنا أنهما بعد تعذيبهما في قسم إدارة السجن سينقلوهن إلى ردهة رقم (8) الذي كان مخصصا للتأديب، وحدث ذلك فعلاً فعدن بعد أسبوعين. وللأسف أُضفن إلى فئة التوابات والجاسوسات، وكان التواب اسماً يطلقه النظام على الخائنين. كان هذا أسلوب (الحاج داود) الجلاد إذ كان بهذه الصورة يشخص الأفراد من قليلي القوة والاستعداد والبسطاء ويعزلهم عن الباقين لكي يهزمهم بالتعذيب في فترة قصيرة ثم يعيدهم إلى السجن بعنوان الورقة الرابحة ليخيف الجميع وكذلك يلقن السجناء أن كل مقاومة لا فائدة منها ولن تصمد. ولكن هذا الأسلوب قد ترتبت عليه باعترافه نتيجة تافهة أو بنسبة الصفر تقريباً.

مقاومة جماعية بأشكال مختلفة

مرة كنت مستيقظة حتى آخر الليل في مكان استراحتي الذي كان بالقرب من باب قسم إدارة السجن، وإذا بصوت الحاج داود ينساب من خلف الباب وهو يتكلم مع كشتابو. ركزتُ على حديثه فسمعته يؤاخذها قائلاً لها: (تعساً لك! قلت لك ألف مرة اتركي اليساريين يحلّون جدول الكلمات المتقاطعة أو يقرؤون الصحف فنحن نعلم ما يفعلون. إذهبي بدلا من ذلك واجمعي أخبار المنافقين (مجاهدي خلقمجاهدي خلق)! لا شعور عندك، أنتِ عاجزة عن إعداد تقرير عنهن حتى أرى ماذا يفعلن! هل إنهن عاطلات لا يفعلن أي شيء؟! تعساً لك هل أنت بليدة إلى هذا الحد! إذا لاحظتُ حالة تقصير أخرى منك سوف أطردك وألقي بك إلى مكان تستحقينه، يا بائسة!).

معنى هذا الكلام أنه يريد ممارسة مزيد من الضغط على السجينات وفرض مزيد من القيود عليهن، فأطلعت كل النساء على هذه القضية. نعم، كانت التشكيلات هي التي يستهدفها الحاج داود، والتشكيلات هي التي كانت ـ ولو بسيطة ـ وسيلة الدفاع الوحيدة بالنسبة للسجينات أمام النظام الذي كانت صلاحياته مطلقة في كل عمل من هذا النوع. فالتنظيم الجماعي للعلاقات الذي كان من مهمات التشكيلات أدى إلي تحريك موحد للسجناء وإنشاء نظام استلام وتسريب الأخبار والمعلومات، وهوما جعل الحاج داود والحراس الآخرين يجن جنونهم، مثلما دعم في المقابل استمرارالمقاومة حتى في السجن.

كان في سجن قزل حصار سجناء قدامى اعتقلوا خلال أحداث (20 حزيران) أو قبل ذلك، كما كانت شكر هناك أيضًا. ولكن السجينات قلن أنها موجودة في الردهة رقم (8)، لذلك بدأت أبحث عن حل لأراها ولكنني لم أُوَفق. كما أنني لا ادري على أي أساس تقرر السماح لنا بالذهاب إلى باحة السجن ما عدا نزلاء الردهة رقم (8) الذي كان للتأديب. لكن الذي حدث بعد ذلك أن نوافذ زنزانات هذه الردهة كانت تطل على هذه الباحة أيضًا، وفي أول يوم خرجت فيه إلى الباحة رأيت شكر وهي بدورها رأتني ونادتني. آه، يا إلهي...شكر! صديقتي الجيدة!.

حينما رأيتها شعرت من شدة السرور كأني أطير وكدت أخرج من ثيابي، كنت أود أن أحتضنها مرة أخرى. وفي هذه اللحظة مرت الذكريات القديمة كلها أمام ذهني كالبرق. كنت أتمنى لو نعود إلى مثل تلك الأيام حينما كنا طالبات جامعيات وكان والدي يمازحها ويناديها بأسماء مرحه. وكانت عيون شكر تمتلئ بالدموع من شدة الضحك، كم كانت ضحكاتها جميلة. كم تبدو أحياناً أمنيات الإنسان ومطالبه البسيطة جداً ومحدودة ولكن من الصعب تحقيقها. الآن شكر حبيبتي تبعد عني مترين أو ثلاث، أنها خلف قضبان النافذة الصغيرة الكائنة في أعلى الزنزانة، ولكني لا أستطيع أن أنظر إليها حتى بصورة مباشرة فكنت أتكلم معها وأنا أسير ونظري إلى غير المكان الموجودة فيه، وكانت هي تموّه مثلي أيضا. وعلى أية حال، لقد استطعت التحدث معها بمساعدة النساء ومراقبتهن وأخبرتها بكل شيء كنت أريد قوله وأعتبره ضرورياً.

كان وضع سجينات الردهة رقم (8) سيئًا جداً مقارنة بوضعنا، لأنهم وضعوا في كل زنزانة (30 سجينة) تقريباً وكانوا يغلقون الباب عليهن، وقد علمت أن الحراس كانوا يدفعوهن بقوة إلى داخل الزنزانة ويضربونهن كي يتمكنوا من غلق الباب. مما جعل السجينات متراصات على بعضهن كالسردين، ودفع شكرإلى اللجوءً خلف النافذة لأن حافتها كانت بمثابة مكانً لسجينة إذا جلست القرفصاء.

لقد كانت ظروفهن صعبة جداً ولا إنسانية، إذ كانوا كل فترة (24) ساعة يسمحون للسجينات مدة ثلاث دقائق فقط للاستفادة من المرافق الصحية. وعلينا ان نتصور كيف كانوا في تلك الأجواء المضغوطة والخانقة حين لا تستطيع الواحدة منهن السيطرة على نفسها فتضطر إلى أن تقضي حاجتها في سلة المهملات أو كيس النفايات، ناهيك عن أن بعضهن مرضى ومنهن من تعاني من ضيق التنفس والاختناق، أو تتعرض لحالات إغماء بسبب الضغط وقلة الأوكسجين. ومع ذلك كان يأتي المجرم الحاج داود كل يوم إلى الردهة لكي يؤذيهن أكثر وكان يقول بلهجته الشائكة والخاصة بالرعاع: قاومن! قاومن! ليأتي الشعب البطل وينقذكن! أو كان يقول: (أين الآن مسعود عزيزكن ليجيء ويغيثكن؟)....

أيتها الخبيثات، سنستمر في احتجازكنّ هنا حتى يصبح شعركن أبيض مثل أسنانكن وأسنانكن أسود مثل شعركن!.

كانت شكر أيضا في واحدة من هذه الزنزانات لكنك كنت لا ترى شيئاً في وجهها سوى هدوئها لتغيظ بذلك الحاج داود. قالت مرة نحن موجودات في (الباب المغلق). لم أفهم قصدها في حينه غير أن السجينات أوضحن لي ذلك بما معناه أننا نحن موجودات في الزنزانات ذات الأبواب المغلقة. ولكني بعد يومين لم أعد أرى شكر ثانية وكانت النافذة خالية. وبعد السؤال والاستقصاء علمت أنهم نقلوهن ـ هي ومن معها ـ إلى الزنزانات الانفرادية في(كوهردشت)[2]. إلهي.. لقد كنت راضية بالوضع الذي كنا فيه حيث أشعر بوجودها ولو من خلف هذا الجدار على الأقل، فكيف إذا لم تعد هناك ولا أعود؟!

شاي الحمام: الحاجة أُمّ الإختراع

كان قانون الحمام في هذا المكان مثل سجن أيفين أيضا، لكن حمّامه كان أصغر فهو يحتوي على ثلاث حجرات وكان يجب على كل ثلاثة أشخاص من حجرة واحدة أن يستفيدوا ربع ساعة لا أكثر. وكان مسؤول الحمام يقوم بوضع برنامج لتقسيم المناوبين ورعاية الوقت ومراقبة دخول وخروج كل فرد. دون أن ننسى انه في الوقت الذي يصبح فيه ماء الحمام ساخناً يخبرنا أحدهم فوراً بذلك كما كان أحدهم يراقب تحديد الوقت. وثمة آخر يقوم حينما يصبح الماء في أعلى درجة حرارة له بإبلاغنا ذلك كي نأخذ منه لعمل الشاي. لقد كان الأمرمضحكًا جداً بالفعل، حتى اننا نحن أنفسنا كنا نطلق عليه شاي الحمام! وقد احتفظنا بعدة أواني كبيرة من الصفائح مغسولة ونظيفة لهذا الغرض، حيث يأخذ "فريق الشاي" الماء ويضعون الشاي فيه ثم يلفّوا الصفائح بالبطانية حتى يخدر ولا يبرد أيضا. وعندما كان ينتهي الوقت المحدد للحمام كنا نقسّم هذا الشاي وإن أصبح فاترا وعديم اللون بين الجميع، وكنا نستلذ بشربه وكأننا كنا نشرب أفضل وأعذب شراب في العالم.

وهكذا كنا نقوم كل يوم صباحاً بإعداد شاي الفطور بنفس هذا الأسلوب وكان كل منا يحصل على نصف قدح من الشاي وهو أحد الأشياء التي كنا نشعر بالحاجة إليها.

حسب المعتاد، وإذا لم يحدث أي طارئ، فإن لدينا يومياً مدة نصف ساعة محددة التوقيت للذهاب إلى باحة السجن. أما إذا أرسلونا في غير هذا الوقت إلى الباحة فإن ذلك يعني بالتأكيد أنهم يريدون تفتيش الردهة. لهذا نرى حاجياتنا بعد ذلك مبعثرة مع بعضها البعض. أو يعني أنهم يريدون إحضار سجين جديد إلى الردهة فيعمدوا إلى إخراج بقية السجناء منه. كان هذا أسلوبهم المعتاد بغية أن لا يحضروا السجين الجديد أمام القدامى إلى الردهة.

وفي أحد الأيام أخرجونا بعد الظهر من السجن فأدركنا أنهم أحضروا مجموعة جديدة إليه. حاولنا أن ندخل بحجة الذهاب إلى المرافق الصحية وغيرها ولكننا لم نتمكن من ذلك. فتقرر بعد التشاور بيننا أن أدخل أنا، فطرقت الباب وقلت افتحوا إن حالة إحدى السجينات ليست على ما يرام فقد أصيبت بوعكة صحية ويجب أن أُحضر لها الدواء. وحينما سمعوا كلامي فتحت كشتابو الباب وبنفس صوتها العالي وضجيجها قالت: ما الخطب؟. دخلتُ رافعة صوتي قائلة: مضى وقت طويل والسجينات موجودات في الخارج، الجو بارد وفلانة التي تعاني من ضيق في التنفس وضعها سيئ والآن ضاق نفسها، وفي هذه الأثناء جُلت بنظري سريعا على المكان فوجدت هناك أختين فهمتُ فيما بعد أن أسميهما عاتقة و مريم، ومعهما طفلة عاتقة الصغيرة التي تبلغ من العمرعشرة أشهر وأسمها عطية، وبحجة إظهار المحبة ذهبت صوبهن وانحنيت نحو الطفلة وقلت بإشارة وهدوء مخاطبة الإثنتين: لا تتكلما ! إنهن جاسوسات (في إشارة إلى السجانات) ثم احتضنت الطفلة وذهبت نحو الزنزانة ومكان الأدوية، ولكن للأسف كان الوقت متأخراً إذ اكتشفت ان هاتين الأختين قد تكلمتا عن مقاومة مجاهدي خلق في مدينة (بابول – شمالي إيران) وجرائم قوات الحرس في بابول، وأن بابول أصبحت نارًا تحت الرماد و...شابه ذلك! وهكذا أعطيتا معلومات لتلك القاذورات عن كل ما يخص وضعهما أيضًا ودفعتا ثمن ذلك غالياً فيما بعد.

جاء الحاج داود في اليوم التالي ليلقي نظراته المسمومة، قال جيد، المنافقات الجديدات اللاتي حضرن بالأمس وقال بمرح وسخرية: الآن بابول أصبحت نارًا تحت الرماد! صحيح؟.... وبهذه الصورة توعد مريم وعاتقة.

سر المفكر الصغير

بعد عدة أيام أحضروا طفلاً صغيرًا آخر اسم والدته أختر وهي من أنصار منظمة فدائيي خلق ونقلت إلى الردهة رقم (7)، وكان الطفل يدعى روزبه ويتراوح عمره بين ثلاث وأربع سنوات. ولا أضيف جديدا إذا قلت أن وجود الطفل بحد ذاته في السجن يدمي قلوب الجميع، وهوأمر سلبي وغير مستساغ من الناحيتين النفسية والجسدية. إلا أنه في نفس الوقت كان سببا في دبّ روح الحركة والحيوية في نفوسنا في تلك الأجواء وتحت غياهب الموت الرهيبة.

إن الخالات (حسب تعبير الأطفال في السجن) كن يحببن هؤلاء الأطفال كثيراً وكن يغمرنهم بحنانهن ومحبتهن. كما كن يخطن لهم أجمل الألبسة بالحياكة اليدوية وببراعة عالية وتطريز جميل، وصنعن لهم أيضا أجمل الدمى باستخدام الأقمشة وضفائرالشعر بالإضافة إلى أدوات اللعب الأخرى التي كن يهدينها لهم. والغريب أن الأطفال كانوا يميزون خالاتهم ويدافعون عنهن بنقاء الطفولة والمحبة.

كانت عطية الصغيرة تتعلم كل لحن تسمعه حيث تفتح يديها الصغيرتين إلى جانبي جسمها وتحرك قبضاتها الصغيرة التي كانت تشبه دمى «كبل» من المفصل، كما تحرك رأسها بدلال يميناً وشمالاً وهي تؤدي رقصات جميلة وجذابة فكانت تجذب السجينات كثيراً برقصها وكن يظهرن لها المحبة وينشدن لها بعض الألحان الجميلة فتبدأ بالرقص.

أما روزبه على الرغم من صغر سنّه إلا أن تصرفاته لم تكن طفولية قط، ولاسيما نظرته الفاحصة والحزينة التي لا تتناسب مع سنه، ومع هذا لم يكن يرفض إدوات اللعب التي كانت الخالات يعطينها له وإن لم يكن يفرح بأي بها أيضا.

مرة كنا في الباحة فرأيته بقوامه الصغير والنحيف جالسًا بجوار الحائط ومستنداً عليه وكانت عيناه شاخصتان إلى جدار الطابوق الذي كان أمامه لفترة طويلة. جلست إلى جانبه وسلّمت عليه بهدوء ودون أن يرفع عينيه قال:..وعليكم السلام، فقلت بهدوء: روزبه ما الذي تفكر فيه؟ قال بصوته اللطيف والحزين: أفكر بأنه حينما أكبر وأصبح مهندسًا سأحطم هذا الجدار وسأخرجكم خارج هذا السور. آنذاك أخذت أبكي بصورة عفوية واخذته في أحضاني. قبّلته وقلت له: بالتأكيد يجب أن تصبح مهندساً وأن تنجز هذا العمل وكل الخالات سوف يبقون في انتظارك.

كان دائماً حينما يشعر بالتعب ويريد أن ينام وتظهر علائم ذلك على وجهه فيلتجئ ببراءة إلى والدته ويجلس القرفصاء إلى جانبها فتحتضنه بيديها وتهزّه بهدوء حتى ينام. وقد رأيت عدة مرات كيف تمر لحظات ما قبل النوم بين روزبه ووالدته التي كانت تتركه دائماً يواصل طرح أسئلته حتى يغفو:

- أمي؟
- ماذا عزيزي!
- أين والدي؟
- لا أعلم ولدي.
- أمي؟
- نعم.
- لماذا كان أبي بهذا الشكل؟
- لا أعلم ولدي، نم!

.... وهكذا إلى أن ينام.

مرة سألت أختر عن لغز هذه المحادثة مع إبنها قائلة: "أرجوكِ أختر إذا كان بالإمكان أن تجيبي على سؤالي، ماذا حدث لوالد روزبه؟ ولماذا يسأل عنه باستمرار؟". نظرَت إليّ بحزن ومحبة في آن شعرتُ كأنها تريد أن تتقاسم معي أحزانها، فقالت: حينما هاجَمَت

قوات الحرس منزلنا واعتقلونا، أخذونا جميعاً إلى السجن، وكانوا يأخذون روزبه إلى غرفة التحقيق مع والده حيث أصبح شاهدًا على كل عمليات التعذيب التي تعرض لها والده الذي استشهد في النهاية تحت التعذيب. ومع أنه كان صغيراً آنذاك إلا أن تلك المشاهد بقيت راسخة في ذهنه بصورة عجيبة. ولهذا السبب يسألني باستمرار وأنا أحاول أن أجعله ينسى، ولكنه يسأل مرة أخرى أيضًا... وهكذا باستمرار.

كانت قصة روزبه مثل قصة كل الأطفال الآخرين مع أسوأ عدو للإنسانية سَلَبَ إرادة الشعب الإيراني المظلوم، فتذكرت أطفال عاتقة التي أخبرتني أنهم عذبوا زوجها ومزقوا جسده، أعدموا المهندس (رحمان علي أبديان) عندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ثم ألقوا جسده الغريق بدمه في حوض السيارة، وأجلسوا ولداه الصغيران محمد ومرتضى اللذن لم يبلغا بعد سن المدرسة الابتدائية في حوض نفس السيارة فوق جثة والديهما الممزقة، وداروا بهم في مدينة بابول. لقد كان يريد عدو الإنسانية من وراء هذا الفعل الإجرامي أن يُظهر قدرته ويرعب أهالي المدينة. وها هما الآن كلا الصغيرين محمد ومرتضى يحملان معهما ـ مثل روزبه ـ الحزن الذي يثقل كاهلهما منذ الصغر، مع فارق واضح وهو

أنهما لا بد أن يتحملا حزنهما لوحدهما بدون والدتهما.

الطائر الصغير أجبر الغوريلا الوحشية على الفرار. ففي أحد الأيام دخل الحاج داود إلى الردهة بنفس ذلك الصراخ والنخير الذي يشبه صوت الغوريلا، كنا ننظر جميعاً لنرى على من ستقع هجمته هذه المرة. كان المساجين الذين عليهم دور الجلد يومها مستعدين لذلك. ولكن الحاج لم يذهب هذه المرة باتجاههم،بل توجه فجأة نحو عاتقة التي كانت تحمل ابنتها عطية في أحضانها وكانت تلف عباءتها حولها، انتبهت إليه فوقفت بصورة عفوية بعد أن أدركت بغريزة الأمومة الخطر الذي يهدد طفلتها فضمتها بقوة إلى أحضانها. كان الحاج الجلاد فعلا مثل الغوريلا بضخامة بنيته وسمنته وطوله أيضًا، فمد قبضته المخيفة نحو الطفلة وأمسك برقبتها من الخلف وقال بلهجة الرعاع المعروف بها: "هل تجعلي أطفال المنافقين الآن يرقصون بمراثي"آهنكران"؟! لماذا لا تجعليهم يرقصون بأناشيد منظمتكم؟

عندما أنقلها إلى قسم إدارة السجن سوف تنسى الرقص"، وقد وقفنا جميعنا ننظر إلى الحاج باشمئزاز وغضب.هل الذي سمعناه صحيحاً؟ هل يريد هذا الجلاد الأحمق أن يأخذ الطفلة التي يبلغ عمرها عشرة أشهر للتأديب في قسم إدارة السجن؟ بالتأكيد كنا نعرف أن هذا الكلام كان بهدف تحطيم الأم.

في هذه الأثناء ظهرت قوة وشجاعة عاتقه عندما شعرت بالخطر الحقيقي يداهم ابنتها، فوثبت من مكانها وبحركة خاطفة سحبت عطية الصغيرة من قبضة الحاج وصرخت بصوت عال: "قذرون! ما ذا تريدون؟ عذّبتم والدها وقتلتموه، أسرتمونا، والآن تريدون أن تعذبوا طفلة عمرها عشرة شهور؟ إستحوا من الله! قذرون! تظنون أنفسكم من تكونوا؟! أنتَ وتلك الأناث الكلاب اللواتي يقدمن لك التقارير، لا تلمسوا طفلتي إلا إذا عبرتم من فوق جثتي". كانت عاتقة تصرخ وتشتم بهذا العنفوان والغضب. فشعر الحاج الجلاد أن الوضع ليس على ما يرام، ورأى الجميع قد وقفوا ينظرون إليه بغضب وأن زمام الأمور في الردهة ستخرج من يديه بسرعة، فارتأى أن أفضل وسائل الدفاع هو الهجوم على طريقته الرثّة حتى لا يُهزم، فبدأ بسب الجميع وأخذ يكيل الشتائم لهم، ثم التفت نحو أختر وحدّق النظر إليها كالحيوان المتوحش الذي يرى فريسته فجأة على بعد أقدام منه. فما كان روزبه الصغير الذي كان في تلك الأثناء قريبا من والدته إلا أن ترك مكانه ووقف أمامها في الوقت الذي كانت قامته تكاد تصل إلى ركبتيها. ثم فتح يداه وجعلها كدرع واقي لها دون أن يُلاحَظ على ملامح وجهه أثر للخوف.

لقد كان هذا أغرب موقف رأيته حتى الآن. ولا أعلم ما الذي كان وراء بريق نظرة هذا الطفل. وكأنه كان يستعيد سماع تلك الصرخات المحبوسة في فم والده تحت التعذيب. لكن الذي حصل على إثر ذلك أن الحاج كان بحاجة لامتلاك الشجاعة التي تؤهله من جديد للوقوف في وجه هذا الطفل الصغير ونظراته الشاخصة أمام جمع المساجين. فما كان منه وقد دبّت آثار الضعف والهزيمة في أوصاله فصاح متوعدا: ها أنتم الآن تضعن أطفالكن أمامكن حتى تقيدوننا. سوف أعاقبكن"... وخرج من الباب مكتفيا بهذا التهديد.

وحينما رأى التوابون والجواسيس أن الأجواء متوترة ومكهربة آثروا الإنزواء في غرفهم وأغلقوا الأبواب على أنفسهم ولم يظهروا لفترة. لقد رأيت بعينيّ في ذلك اليوم حنان وعطف الأم والإبن في نفس النقاء والصفاء، إلى جانب الشجاعة التي صرعت الغوريلا. لكن هذا النصر سوف لن يبقى بالتأكيد دون رد من قبل الجلاد.

قصة زهرة

كانت (زهرة جاوشي) إحدى الأخوات ويبدو أنها قد اعتقلت لهذا السبب لأنها كانت تعمل في مكتب بني صدر أو إحدى اللجان التابعة له، ولكنها لوحظت في السجن بالقرب من الأخوات المجاهدات، وقد أصبحت من أنصار مجاهدي خلق. كان زوج شقيقتها وعدد من أقاربها من مؤيدي النظام ومن أفراد قوات الحرس وعلى الرغم من هذا لم تكن تهمتها محددة، إذ كان بني صدر رئيساً لجمهورية النظام ذاته وكان العمل في اللجان التابعة له لا يمكن أن يعتبر جريمة، ولأنها كانت تقف أمام الجلادين وإجراءاتهم القمعية ضد السجناء وتتشاجر مع الحاج داود فكانوا يؤثرون عدم إطلاق سراحها، لكن الحاج الذي لم يكن يتمكن من إرغامها على التعاون وجعلها توابة يقول لها: أنتِ أسوأ من هؤلاء المنافقين وألا لكنتُ أطلقت سراحك.

كانت زهراء من أهالي جنوب العاصمة وهي فتاة كادحة اعتمدت على نفسها وكانت ترفض الرضوخ، رغم أنها مريضة وتعاني من اضطرابات في المعدة لا تمكنها من تناول طعام السجن فتكتفي بتناول الخبز اليابس والجبن فقط. كانت حصة كل فرد يومياً (10) غم من الجبن تقريباً أي بمقدار مكعب سكر. ولهذا لم تكن لدينا بالطبع جبنة زائدة ومع ذلك كنا نحتفظ بجزء من حصصنا اليومية للمرضى ونقتسم الباقي.

أصبحت زهرة نحيفة جداً بسبب المرض وعدم تناول الطعام ووصل وزنها إلى أربعين كيلو غراما تقريباً ولكنها بهذا الجسد النحيل قد نالت بوقفتها أمام الحاج المجرم إعجاب الكثيرين. وكانت الأخوات يظهرن لها المحبة والاحترام العاليين باعتبارها رفيقة مجاهدي

خلق في الشدائد ضد العدو. وعلى هذا الطريق واصلت مسيرتها في صفوف مجاهدي خلق، واستشهدت بعد إطلاق سراحها من السجن.

نماذج عديدة للأذى وحالات التعذيب

كان السجانون الجلادون يبدعون كل يوم في إلحاق الأذى بالسجناء لأجل تحطيم معنوياتهم. نحن أيضا كنا نحاول أن نواجههم ونجهض أساليبهم. كان الجو في الليل بارداً، فكانوا يسربون عن طريق قنوات نظام التدفئة في السجن الدخان والروائح الكريهة والمؤذية جداً. وكلما كنا نطلب منهم إطفاء التدفئة لم يستجيبوا لنا، فكنا مضطرين إلى أن نترك النوافذ مفتوحة حتى لا نختنق خاصة النساء اللواتي يعانين من ضيق التنفس(الربو) ولا تتوفر لهن إمكانات العلاج، ويبدو أنهم كانوا يبتغون إيصالنا إلى مرحلة الاختناق والموت.

كانت أرضية الردهة مفروشة بسجادة رقيقة وبالية فيها عدة ثقوب إذ كانت بسمك قماش عادي ورقيق ولأن أرضية الردهة كانت مغلفة بالكاشي (الموزاييك) الذي كان بارداً جداً. فقد عمدنا إلى فرش أرضيات الردهة والزنزانات بالبطانيات العسكرية وكذلك كنا نستعمل البطانيات المتوفرة بصورة مشتركة لأجل حل مشكلة البرودة فكنا نتغطى بصورة مشتركة، وبهذا الشكل كنا نستطيع النوم تحت وطأة البرد القارص.

وفي إحدى الليالي جاؤوا فجأة إلى الردهة وأيقظونا وقالوا: لتحمل كل سجينة بطانية وتخرج، كنا لا نعلم ما هو الموضوع عندما خرجنا جميعاً. قالوا قفن واتجهن نحو الجدار وفعلنا ذلك تحت اللكمات والركلات والشتم من قبل التوابات اللواتي كن المسبب الرئيسي وراء هذا الفعل.

بعد فترة من الانتظار في البرودة جاء الحاج داود الجلاد ومرة أخرى تفوه بفمه القذر قائلا: "سمعت أنكن تستعملن البطانيات بصورة مشتركة وتفعلن بعض الممارسات مع بعضكن، هنا جامعة الجمهورية الإسلامية...". ولم يتورع عن استعمال المزيد من عبارات التي تعكس ما بداخله كقيامه في إحدى المرات بإخراج الأخوات من الردهة ليعذبهن ويجلدهن

بالسوط، وألقاهن بعد ذلك على الأرض وأمرهن بأن يزحفن جميعاً. ثم قال للحرس أنظروا إذا كنا نسعى وراء امرأة واحدة فإن كل هؤلاء النسوة تحت تصرفنا!

إلى جانب ذلك كله، أبقونا تلك الليلة خارج الردهة حتى الصباح وأخذوا منا كل البطانيات وأعطوا كل سجينة بطانيتها التي جلبتها عائلتها لها او أعطوها بطانية عسكرية، وحينما عدنا إلى الردهة شرعنا بالضحك وتظاهرنا بالسرور وقمنا فوراً بتجديد التنظيم لأجل أن نغيظ التوابين. ثم قلنا سوف ننام هذه الليلة كلنا بكل الأمتعة. إن كلمة (كل الأمتعة) لها معنى خاص بها في السجن، فعلى سبيل المثال حينما كانوا يقولون أخذوا فلانًا مع كل أمتعته أو عند ما كان المحققون والحراس يقولون ليأت السجين فلان مع كل أمتعته فهذا يعني أننا لن نراه ثانية، وأن مصيره يتأرجح بين الإعدام أو أي مصير آخر.

ممنوع حتى قراءة القرآن الكريم!

قد لا يعلم الكثيرون أن النساء في سجن «قزل حصار» كن يصنعن أنواع الصناعات اليدوية الجميلة بجودة ومهارة عاليتين من خلال استعمال إمكانيات بسيطة جداً. وعلى سبيل المثال كن يصنعن التحف والورود الصغيرة والجميلة باستعمال عجين الخبز كذلك كن يلونن تلك المصنوعات بالاستفادة من حبر أقلامهن. وكذلك كن يحكن أجمل الملابس باستخدام خيوط الملابس أو الجواريب القديمة. وقد استعملن الدبابيس الخاصة بالشعر كسنارة للحياكة، وكن يصنعن من الحجر ونوى التمر الأساور والسبح ولوازم الزينة الأخرى وحينما يكون الوقت مناسباً كن يقدمن تلك الأشياء هدايا إلى عوائلهن أو أطفالهن الذين كانوا خارج السجن.

وللحقيقة، كان هذا نوع من المقاومة وكانت السجينات يرفعن معنوياتهن بهذه الأعمال. لذلك قام النظام بمنع هذه الأعمال الجماعية بهدف ممارسة مزيد من الضغط على السجينات. فبدأوا أولاً بمنعهن من قراءة الصحف والكتب حتى وصلوا إلى الكتب الدينية وحتى إلى القرآن الكريم في النهاية. وكانوا يجدون ذريعة لذلك ويلقون بها على رقابنا.

فعلى سبيل المثال كانت السجينات يقمن بحل جدول الكلمات المتقاطعة الموجودة في الصحيفة بالتعاون مع بعضهن فأصبح الحرس يدّعون أن هذا العمل جماعي وتنظيمي. وبدأوا بتمزيق صفحة جدول الكلمات من الصحيفة. وبعد فترة أخذوا يقولون: إنكن تعدّن تحليلاً سياسياً ضد النظام من على كتابات الصحف، فتم منع الصحف نهائيا عنّا رغم أنها صحف رسمية للنظام! وهكذا تطورت الأمور فقاموا بمصادرة الكتب الدينية أيضا وقالوا أننا نقرأها معا على شكل مجاميع ونفسرها ضدهم !. أما المصحف الشريف فكان آخر الكتب الدينية التي لا يستطيعون بهذه السهولة تبرير أي قرار مشابه تصدره الحكومة التي تسمى نفسها بالجمهورية الإسلامية بشأنها. ومع هذا قاموا بأختيار مجموعة من الخصوم وأخذوها إلى الجامعة وبدأوا بتعبئة أفرادها وتوعيتهم على كيفية "التعامل" مع قضية قراءة القرآن؟ وكان هذا الموضوع تحديدا تصرفا مسيئا جدا، عدا عن أنه كان بالنسبة لهم مثل النفخ في الرماد. ولكنهم كانوا عديمي الحياء إلى درجة أنهم لم يتوانوا عن بذل محاولات لتبرير ذلك. والخلاصة أنهم ربما كان بإمكانهم التصرف كما يشاؤوون وقد يصل بهم الحال إلى كل ما ذكرت آنفا، إلا أنهم كانوا لا يستطيعون أن يواجهوا ما في أذهان ودواخل السجينات فرداً فردًا.

حينما قام النظام بجمع الجرائد بحجة كوننا نحل جدول الكلمات المتقاطعة من الصحف بشكل جماعي، قالت (منيزه) لا تحزنوا! اتركوا لي حل هذا الموضوع! إنهم يريدون إيذائنا سأريهم! وشاهدنا في الليل جدول كلمات أكبر وأكثر مضموناً من جدول الصحف الموجودة،ضمنته أيضا كل الجوانب الفكاهية. ومنذ تلك اللحظة كان إعداد جدول الكلمات المتقاطعة واحداً من أعمالها الأساسية بلا انقطاع وكان في الحقيقة أكثر جاذبية من جداول الصحف.

كما وكنا نلاحظ في ساعة الاستراحة شخصًا جلس في الباحة يضرب الحجر بهدوء على السور وكانت سجينة أو سجينتان تحرسانه وتراقبان لتخبراه إذا كانت جاسوسة قد اقتربت من هذه المسافة وكان هذا الإخبار يتم بواسطه صوت أو مناداة اسم كانوا يتفقن عليه، وعلى هذه الشاكلة كن يبتكرن أشياء جميلة بالحجر وشرعن النساء بصنع بعض الأعمال

اليدوية بالتعاون بينهن، ولم يتركن النظام ينتصر عليهن بل يجدن على الدوام طريقًا مناسبًا آخر لمواصلة النضال .

و يمكن القول أن النظام كان يستعمل كل أساليب ممارسة الضغط، أما السجينات فكن يجهضن تلك المحاولات بإيجاد البدائل، وبالتأكيد كن يدفعن ثمن ذلك بالتعذيب والسوق إلى الزنزانة الانفرادية وما شابه.

مقاطعة وتأديب التوابات

كان للسجينات أسلوبهن الخاص في مواجهة التوابات والجاسوسات ودحرهن، بداية بعدم مشاركتهن تناول الطعام معا والعمل على تركهن منبوذات حيث لا يتكلم معهن أي شخص ولا يسلم عليهن واغتنام أية فرصة لإظهار السخرية والاستهزاء منهن.

ذات مرة منعونا من الذهاب إلى الباحة لعدة أيام، وكانت ناهيد وآذر من الفتيات المشاغبات اللواتي يبتكرن أساليب السخرية من الخونة، فحاولت آذر أن تُغضب كشتابو وتجعلها موضع السخرية فصاحت آذر يا نساء إن باب الباحة مفتوح. وكالمعتاد أسرعت السجينات دفعة واحدة نحوالباحة لأن ملابسهن بقت عدة أيام في الخارج فهجمن نحو الباب ونحو(كشتابو) فألقينها جانباً وكن يدفعنها لأجل مضايقتها، وبدت خائفة كما لو قُبض على روحها من شدة الخوف فالتجأت إلى قسم إدارة السجن، وعندما شاهدت النساء باب الباحة مغلقاً عدن بغضب وتذمر. عندها شعرت كشتابو أن وضعها قد تحسن قليلاً فعادت وسألت آذر بلهجة فوقية: لماذا قلت إن باب الباحة مفتوحا؟ فردت عليها بكبرياء: عجيب! أنا متى قلت ذلك؟ أنا سألت فقط، سألت النساء هل باب الباحة مفتوح؟ فارتفعت أصوات ضحك النساء في عملية استهزاء جديدة على كشتابو.

وفي إحدى المرات أراد القدوم إلى ردهتنا الجلاد لاجوردي بصحبة موسوي أردبيلي وهادي خامنئي وعدد من الجلادين الآخرين لأجل التفتيش. ونظرا لقلة عدد التوابات جمعوا عدة أشخاص آخرين من الحرس وأحضروهن لكي يهتفن بدلا منا حينما يصل فريق الجلادين لأننا كنا لا نهتف بالطبع. وحينما دخلوا بدأ هؤلاء الأشخاص بالهتاف مرددين:

(صل على محمد، جاءت رائحة بهشتي[3]). وعلى الفور قالت ناهيد يا نساء اختنقنا من هذه الرائحة الكريهة، رجاء أغلقن باب ذلك المرحاض. فسيطرنا على أنفسنا بالقوة لكي لا نضحك بصوت عال فننال العقوبة المعروفة.

كانت منيزة شاكري تلميذة أيضا يبلغ عمرها خمسة عشر سنة. فتاة مليئة بالحيوية والذكاء إذ كان لديها إبداعات جذابة للاستهزاء من الجواسيس كإطلاقها على إحدى الخائنات اسم (بي جي) أو(جادوكر) أي الساحرة. وكانت لـ(بي جي) نظارة ذات إطار أسود سميك تضعها على أنفها الطويل فتبدو تشبه العجوز الساحرة، وقد أخذت منيزة تثير لها المشاكل كل ليلة، كأن تتعمد حينما تستيقظ (بي جي) من النوم أن ترى عند رأسها مكنسة مربوطة بطرفها عصا خشبية، ثم ترى شيئا آخر في الليلة التالية، دون أن تعلم سر هذا الذي يجري ومن وراءه. إلى أن سمعت السجينات في النهاية يقولن إنها الساحرة ويقصدونها هي، فذهبت شاكية للحاج: يقول المنافقون أنني (بي جي). وعندما علمنا بهذا كدنا ننفجر من شدة الضحك عليها. وأمام استمرار هذا الوضع واصلت التماسها للحاج أن ينقذها من هذا الردهة.. حتى نقلوها منه.

الإرشاد في عُرفهم يعني سحق الإنسان

كان الحال في سجن (قزل) كما هو عليه في سجن إيفين إذ كان لدينا في بعض الليالي برنامجا يسمى (الإرشاد) يحضر فيه الملا أو من يشبهه لأجل إرشادنا فكانوا يخرجوننا بالقوة من الأقفاص ويجلسوننا في الممر أمام قفصنا ثم كان يبدأ بأكاذيبه الحقيرة والمثيرة للاشمئزاز، في محاولة منه أن يجرنا إلى المشاركة في المناظرة. وأعتَقَدَ أنه في حالة نجاحه بمهمته أي في جرنا إلى المسرحية ستستند له الحكومة منصباً أوموقعاً إدارياً في الحكومة. وبعد أن فشل في إيجاد من يتجاوب معه من قبلنا بدأ بالشتم مستعملاً كلمات بذيئة كتلك التي يستعملها المحققون أثناء التعذيب. وهكذا أدركنا أن ما كان يحاول تحقيقه وقتها كان جزءا من الذي يمثله الآن دور"المعلم والمرشد الواعظ في سبيل الله" !.

إن الحاج داود الذي كان يشعر أنه انهزم في مشروع إعداد التوابات ودحر النساء، كان مثل أفعى جريح تلتف حول نفسها، ويسير بذلك الجسد مثل الغوريلا يصرخ ويشتم بجنون. ولم يتورع مرة عن صفع إحدى النساء بقوة مما أدى إلى اصطدام رأسها بالجدار الذي كانت تقف إلى جانبه ففقدت وعيها وسقطت على الأرض. ولما قمنا بنقلها إلى داخل الردهة وبقيت فاقدة الوعي أصرينا كثيراً على نقلها إلى المركز الصحي لكنهم رفضوا ذلك، فجلسنا قربها حتى الصباح وكنا نضع المناديل المبللة بالماء البارد على رأسها وبقينا على هذا المنوال لمدة أربع وعشرين ساعة، حتى مرالموقف بسلام.

لا توجد لهؤلاء المجرمين أي حدود في مساعيهم الهادفة لسحق السجناء، فقد ترك خميني صلاحياتهم مطلقة لأجل تحطيم السجناء كي يلحقوا الأذى والعذاب بهم وقد ارتاح بالهم بفتوى صادرة منه تحلل هدر أرواح وأموال وأعراض أي شخص من "المنافقين"، وتفتي بأنه إذا ما توفى أحد منهم تحت التعذيب لا يتحمل مسئوليته أي شخص آخر. نحن كنا نعلم بكل هذا ولأجل ذلك كنا نسعى لإنجاز أي عمل بصورة جماعية وليس فردية. ذلك لأنه حينما يكون العمل جماعيا يكون من الصعب عليهم فعل شيء ضدنا. ومع ذلك كنا لا نستطيع أن ننشط بصورة علنية، لأن النظام الذي يصر على تقييدنا بشدة يريد أن يضغط على الباقين من خلالنا. مثال ذلك إذا لم يذهب شخص إلى مناسبى خطابية دينية فإن عقابه لن يُقتَصَر عليه وحده بالتعذيب بل سيشمل أيضا إضافة إلى التعذيب الخاص به تأديب كل الأشخاص الموجودين في زنزانته، الأمر الذي كان مؤلماً بالنسبة لجميع الأخوات لأنهن لا يردن ـ بالطبع ـ أن يُعذّب شخص آخر بسببهن.

الفصل الخامس

القفص

منذ آذار سنة 1983، نقلوا عدداً من النساء السجينات المقاومات من أمثال شكر إلى كوهر دشت للتأديب، ومنعوا عنهن الزيارة ولم يكن مكانهن معروفاً. وحينما كانت عوائلهن تراجع بحثاً عنهن كانوا يتخبطون في مسعاهم يميناً وشمالاً ويبذلون جهودًا حثيثة لكن دون جدوى. فكانوا يتعقبون أي خبر عنهم أمام السجون حائرين. ثم أصبح واضحاً لديهم فيما بعد أنهم قد نقلوا إلى أماكن التعذيب الخاصة التي تعرف بأقفاص «الوحدة السكنية». ومع أن أحدا لم يعرف بعد مكان وجودها، إلا أنه كان داخل وحدة في سجن قزل حصار حيث تقبع فيها هؤلاء الأخوات لمدة سنة تقريباً تحت أبشع أنواع التعذيب ثم يُنقلن إلى سجن إيفين، وبعد سلسلة من عمليات التحقيق والتعذيب في أقفاص إيفين الانفرادية يجري نقلهن مرة ثانية إلى الوحدة رقم (1) في سجن قزل حصار أي إلى الأماكن التي عرفت فيما بعد بالأقفاص، لأنه حتى تلك الأثناء لم تكن قد ظهرت أقفاص (قيامت) وأقفاص (الوحدة السكنية) ولم يعرف الجميع شيئًا عنها حتى نحن أيضا سجناء قزل حصار لم نطلع عليها بصورة عامة، رغم سماعنا أن كنا نعرف مثل هذا القدر أن الأقفاص التأديبية أصبحت في الوحدة رقم (1) وقد نقلوا عددًا من الأخوات إليها.

وأذكر بالمناسبة أنهم في أحد أيام شهر شباط سنة 1983، أخرجونا إلى برنامج (الإرشاد) في الوحدة، وانتظرنا الملاّ أو من يشابهه كي يأتي ويتحدث لنا، ولكننا شاهدنا فجأة عدداً من السجينات العلمانيات اللواتي كن في قفصنا. وتم نقلهن إلى مكان مجهول بسبب كونهن لا يصلين، وهنّ يبكين أمامنا ويرددن كلاما من خلف الميكروفونات: "آمنا بالإسلام ونعتذر بشدة عما ارتكبنا من أعمال ضد الإسلام الحنيف والحاج العطوف، ونحن لسنا متضايقات من الإسلام والملالي وقوات الحرس بسبب إعدام ذوينا وأقاربنا لأنهم أطلقوا الزناد فقط! وهذا ليس مهماً! بل المهم والعامل الأساسي هو أمريكا وإسرائيل والصين والاتحاد السوفيتي"... وعدة دول أخرى!.

الانتقال إلى القفص

عدنا تلك الليلة ونحن نشعر بالمرارة، وكنا نعلم أن هذا يعتبر نصراً للنظام يترتب عليه نتائج مسيئة للجميع. فمنذ صباح اليوم التالي أصبحت الجاسوسات يتصرفن بلا خجل وبصورة مثيرة للاستغراب إذ كن يلتففن حول السجينات ويُقدمن على إلحاق الأذى بنا دون سبب مع أننا كنا نسعى ألا نشتبك معهن. في ذلك اليوم كان الحمام ساخناً وفقاً للبرنامج ونحن كالمعتاد رفعنا مقدارًا من الماء الساخن لأجل إعداد الشاي، وفجأة نادوا ما يقارب الخمسة عشر سجينة وأخرجوهن، وأذكر منهن كلا من أعظم وساره وجميلة وأخريات لا أتذكر أسماءهن. كانت الأجواء متوترة جداً فجاءت "طاووس" إحدى التوابات إلي وقالت بوقاحة: "جيد! لقد نقلوهن للتعذيب حتى لا تعدن تُعدِدنَ الشاي التنظيمي"!. نعم هكذا قرر عديمو الشرف حرماننا حتى من شرب الشاي وتعذيب عدد منا تحت ذريعة من أغرب ما يكون. قلت لها اسكتي أيتها القذرة! سأوجه لك صفعة قوية تُدمي فمك، إنصرفي عني! أيتها القردة الحقيرة المتزلفة المستهتره! وبعد أن شتمتها ونفست عن غيظي شعرت بلارتياح.

ولمّا انصرفت التوابة عادوا بعد عدة دقائق فنادوني أيضا. كانت السجينات ينظرن إلي بقلق ويراقبن ويساعدنني على ألا أنسى شيئاً من ملابسي خصوصا وأن الجو كان بارداً، فارتديت كل ملابسي التي لدي، لأنني لم أتخيل أن أعود ثانية. كانت عاتقة ومريم والأخريات صامتات يراقبن، وكنّ يودعنني بعيون دامعة. فكرت كم سيحزن قلبي على فراق عطية الجميلة. أخذوني إلى قسم إدارة السجن، ثم عصبوا عيني وأوقفوني بجوار الأخريات ووجهي نحو الجدار، كان الحاج داود موجوداً هناك وهو يصرخ بصوت عال. بعد ذلك بقليل سمعت صوته المنحوس يقول: "طيب، هؤلاء زعيمات المنافقين. لا بأس سيتم نقلهن إلى مكان إما يعُدنَ إلى رشدهن فيه أو يَمُتن فيه".

لم ينفك هذا الجلاد حتى اللحظة عن تكرار نفس مجموعة أباطيله دون ملل ولا خجل. المهم، أخذونا بعد ذلك إلى السيارة وبعد مسافة قصيرة ترجلنا وأدخلونا بناية أخرى تشبه الوحدة رقم (3) أدركنا فيما بعد أنها الوحدة رقم(1)، ثم احتجزونا فيها بصورة منفصلة ولا

أعلم كم ساعة كانوا قد أوقفونا ونحن في مواجهة الجدار، في النتيجة جاء الحاج مرة أخرى وبدأ الاستهتار بنا وتعذيبنا. كنت أرتدي سترة سميكة حاكتها خالتي وأرسلتها لي، وحينما وصل إلى جانبي قال:من هذه؟ ثم قال ما ضخامة جسدها؟ تبدو كأنها حرس شخصي! فضربني بقوة على رأسي بالكيبل، أصبتُ بالدوار ولكني حاولت التماسك وألا أسقط وأُظهر ضعفي، وقد أخذ رأسي يؤلمني بشدة ولم أعي بحالي وأنا تحت الضرب الموجه لسائر أنحاء جسمي. ولما خرج صوت أنيني تركني الجلاد (الحاج داود) وقال خذوها!.

بعدها قاموا بتدويري حول نفسي عدة دورات حتى لا أدرك أي أتجاه سأذهب بالضبط، ولكني أدركت أنهم نقلوني إلى جهة اليمين في قسم إدارة السجن وتركوني في غرفة فارغة، وقاموا بتسليمي إلى المرأة التي كانت هناك، فأخذتني وأجلستني في مكان بين سريرين مفصولين عن بعضهما حوالي نصف متر بصورة عمودية. كان الجو حاراً جداً ومشبعاً بالبخار تنبعث منه رائحة الحمام ولا تزال عيناي معصوبتين، سحبت يدي إلى رأسي، فقد تورم مكان ضربات الكيبل بمقدار عدة سنتمترات واصبح رأسي مجزءاً على شكل ممرات بحيث تستطيع لمسها من فوق الحجاب والعباءة. ولكني كنت لا أشعر بالألم، وكنت أفكر ماذا حدث للأخريات؟ وأين ذهبن؟ بسبب الجو الخانق في هذا المكان أصبح حالي ليس على ما يرام ولا أعلم هل كان ذلك بسبب تلك الضربات التي تعرضت لها أو بسبب الجو الخانق الذي لا يمكن تحمله. فشعرت بتعب شديد وفقدت وعيي. لاأتذكر هل نقلوني إلى مكان آخر أم لا ولكن رسخ في ذهني أني كنت هناك في داخل نفس الغرفة الكبيرة أجلس وسطها. كان يوجد على مسافة من جهة اليمين حماماً وكان دوش مائه الحارّ مفتوحاً، أو ربما كانت حنفية الماء الحار كذلك. وبقيت هناك على نفس الحال لمدة أسبوع تقريباً لا يسمح لي بالكلام وحتى السعال، وإذا كانت لدي قضية طارئة كان علي أن أرفع يدي.

كنت طوال تلك الفترة بين هذين السريرين في وضع الجلوس الإجباري ولا أدري لماذا لا يتركوني أن استلقي على الأقل، أو أزيل هذه العصبة من على عينيّ. بقيت على هذه الحال حوالي أسبوع ، ثم جاؤوا بعدها وقالوا لي انهضي وأخذوني باتجاه قسم إدارة السجن، ثم

أدخلوني غرفة كبيرة وقاموا بتسليمي إلى امرأة أخرى. طلبوا مني أن أرفع العباءة والعصبة. ودهشت على الفور عندما رأيت أمامي كيانوش، إحدى "المناضلات" التي كانت تظهر نفسها لنا كأنها تشي جيفارا. الآن أصبحت ترتدي قناعاً وعباءة سوداء وكانت تريد أن تفتشني بشكلها الذي يشبه الحرس النسوي. يا من عجائب الدهر! مناضلة متشددة تحولت خلال أسبوعين من الزمن إلى حارسة. حاولَت ألا تنظر إلى عيني ومثلما كانت تفتشني كانت "تنصحني" بترداد بعض الأكاذيب كقولها "الناس في الخارج يحتاجون لأمثالنا لهذا يجب أن نكون هنا". أجبتها: "لا يحتاج الناس إلى قاذورات مثلك! لا تشغلي نفسك بالناس! انشغلي بعملك فقط"، ثم سكتت وكانت هذه آخر جملة قلتها لها فأخذتني إلى داخل الردهة وأجلستني في مكان يشبه المكان السابق وبنفس الظروف. أي أرتدي العباءة وأضع العصبة وفي حالة جلوس وأتجه نحو الجدار بين السريرين اللذين تفصل بينهما مسافة نصف متر، كانت في حقيقتها كالتابوت بلا سقف.

الآن أصبحت مشاعري تعمل بصورة سليمة فأدركتُ أن هذا المكان والأماكن المشابهة له مخصصة لإعداد التوّابين التابعين للحاج داود. هؤلاء الحمقى كانوا يعتقدون أن باستطاعتهم "إعدادنا" مثل الآخرين. حينها تذكرت مسعود وكأن ذهنه كان ينتظر هذه اللحظة. حينها تذكرت ثماني سنوات من التعذيب والألم واستعدت صوت صيحاته الشجاعة في خاطري وكنت أشعر به في جانبي، تذكرت الزنزانة والتحقيق في الشعبة، وتذكرت تلك الليلة التي أُعدم فيها إثنا عشر سجيناً، كما تذكرت تلك الليلة التي أحصينا فيها أطلاق رصاصات الرحمة لـ(220) سجيناً، ثم تذكرت أيضا إعدام تهيمنة وطوبى وكبرى.

يـــا إله مجاهدي خلق، لقد قلت في كتابك "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها"، أي لا يُحمّل أي إنسان أكثر من قدرته. بناء على هذا فرض الله سبحانه وتعالى علي هذا الواجب وبالتأكيد يعلم أني أطيعه، إذن أستطيع! تبدو هذه الأفكار كأنها روحاً جديدة انبعثتفي جسدي. والدليل أنه قبل عدة ساعات مضت كان ضغط العصبة بالنسبة لي مؤلماً مثل عذاب القبر، وكنت أصرخ في داخلي متى يرفعون هذه العصبة اللعينة عن عيني؟ والآن أنا نفسي أستعد للعيش بالعصبة!.

أيها الحاج القذر! سنترك في قلبك حسرة بأنك لن تتمكن من الانتصار على مجاهد واحد. كنت أشعر أن لدي سلاحًا قويًا جداً وأطلق الرصاص بكل حقدي إلى قلب وعقل هذا الكائن، وكان يملؤني شعور النصر بصورة غريبة.

وهكذا مضت الأيام على هذه الصورة. كان يأتي بصمت لتفقد جهازه، ولكن دون فائدة يجنونها بالرغم من استمرارعملية إعداد التوّابين التي كانت تسير على الشكل التالي: بداية يجب علينا الإستيقاظ بين الساعة الخامسة والسادسة وقت آذان الفجر، حيث نُعطى ثلاث دقائق للوضوء وخمسة دقائق للصلاة ثم كنا ندخل إلى القفص ونجلس ونتناول الفطور في نفس المكان. وفي وقت الظهر نعطى مرة ثانية ثلاث دقائق للوضوء الذي تتبعه الصلاة، ثم ندخل ثانية إلى القفص ونتناول الغذاء ولا اعلم أي ساعة نعطى مجدداً ثلاث دقائق للوضوء ثم الصلاة والعشاء وكنا نجلس حتى منتصف الليل. بعد ذلك كنا نتمكن من الاستلقاء والنوم. والمعتاد أننا ننام بين أربع وخمس ساعات. وعلى نفس المنوال يتكرر اليوم التالي. بهذه الصورة مرت الأيام والأسابيع والشهور وهم يأتون وويذهبون ولا يتغير في مواقفنا أي شيء.

قاموا بوضع عدة بطانيات عسكرية لأجل الصلاة على شكل قاطع في الزاوية، وقد عزلوا داخله ما يشبه غرفة صغيرة. عندما كنا نذهب للصلاة ولا نشعر بوجود الرقيب علينا، كنا ننظر إلى الخارج من بين هذه البطانيات فنرى ملعبًا للرياضة التقليدية الإيرانية وفي وسطه حفرة بشكل حلبة. وشاهدت فيما بعد مثيل هذا النظام في الوحدة رقم (3)، حيث خصصوا عددًا كبيرًا من الأقفاص ما بين (80-90) قفصًا خُصص كل واحد منها لجلوس شخص واحد بمفرده ووجهه الى الحائط ووضعوا في داخل الحلبة أمتعة وحقائب السجينات الموجودات في الأقفاص. وقد حاولت أن أتعرف من خلال ما هو مكتوب على هذه الحقائب أسماء النساء السجينات اللواتي أحضروهن. كان مكان التوابات وسط القاعة بجوار الحلبة وكان عددهن اثنان. ولديهن طباخ لطهي الطعام وتخدير الشاي. كانت القاعة على شكل مستطيل حلبة الملعب على جهة اليسار.

استقرت التوابات أمام باب الدخول في وسط القاعة. أما مكاني فكان على جهة اليسار على مسافة خمسة أمتار من باب الدخول. أما مكان الصلاة فكان في جهة اليسار بعد الحلبة. وحينما كنا نذهب للصلاة ونرفع العصبة من عيوننا نرى برج الحراسة والحارس المراقب له. بهذا الشكل كنت أشرف بصورة تامة على الغرفة وموقعها وكنت كل يوم أتفحص أي مكان قد أصبح خالياً، وهل أحضروا شخصًا جديدًا أم لا.

اعتدنا كل يوم على سماع شريط للراثي (آهنكران) وكل الرثاة الآخرين التي تثير الاشمئزاز، وكذلك صوت قرع طبول الحرب التي كانت تبث عبر مكبرات الصوت بصورة مستمرة مع أخبارانتصارات النظام في جبهات "الحق على الباطل". وكان هناك برنامج (الإرشاد) الخاص بالوحدة. ولحسن الحظ كانوا لايسمحون لنا بالذهاب إليه، إذ كان يبث صوته لنا حتى لا نكون بعيدين عن الأحداث.

أيام القفص بلياليها

كما اعتدنا ظهر كل يوم لسماع تلاوة القرآن الكريم والأذان والأخبار. وكان هذا يروقنا، لأنني كنت أستطيع عن طريق ذلك أن أعلم تاريخ وحساب الأيام. وكان هذا بحد ذاته امتيازًا كبيرًا، نظرا لانقضاء أوقاتنا الأخرى في صمت. لم أعرف في البداية دلالته ولكنني أدركت بمرور الوقت أنه كان أسلوبًا مؤثرًا للتعذيب والضغط الدائمين، يربك عقل الإنسان ويجعله لا يعرف شيئاً عن العالم المحيط به بعد أن أصبح هذا العالم مخيفًا.

إلهي، ما الذي حدث للنساء الأخريات؟ كيف حالهن؟ ما الذي سيفعلونه بنا؟ إذا كانوا سوف لن يخرجونا من هنا، إذن لماذا لا يعدموننا؟ ما الذي يفعله أبي وأمي؟ أين يبحثون عني؟. كل هذه الأسئلة وغيرها كانت تهاجم عقلي وتحدث ضجة كبيرة في داخلي. كنت أود أن أتحدث مع شخص، ولكن أحدا لم يكن موجودا، إلا أنا والله سبحانه وتعالى. فكنت أناجيه وأشكو إليه سوء حالي وضعفي وكنت أبكي وألتمس منه العون بأن يجعلني قوية وصلبة وألا يتركني لأركع أمام العدو.

كنت أنصت بدقة إلى القرآن الذي كان يُبث يومياً قبل الصلاة من الإذاعة وكنت أفكر في معانيه و أستنبط جواب الأسئلة التي تجول في خاطري من كلام الله عزوجل، فكنت أجد الأمان والاستقرار لفترة.

لم يؤذني أي شيء قط بمقدار العصبة التي تغط عينيّ. لماذا لا يفتحون هذه العصبة اللعينة بكل ما لها من تأثير كبير في عزل الإنسان عن العالم الخارجي ودفعه بصورة أكثر إلى التقوقع والانكفاء على ذاته؟ وهذا ما فعلوه بنا عندما حرمونا من أهم الحواس وهو البصر، أهم عامل للاتصال بالعالم الخارجي الذي يحيط بنا. كنت أقول لنفسي لولا وجود هذه العصبة اللعينة لكنت أتحمل الظروف القاسية في هذا المكان حتى مائة عام. هذه العصبة اللعينة قد حطمت أعصابي. أثناء الصلاة كنت بدون هذه العصبة لعدة دقائق فكنت أستطيع أن أرى من النافذة مرصد الحراسة، وكنت أنظر إلى ذلك الحرس الذي كان مراقبًا في المرصد وأحسده لأنه كان يستطيع رؤية كل مكان.

حتى أثناء النوم كان يجب أن تكون العصبة على عيوننا. كانت هذه أسوأ حالة أصبت بسببها بالأرق الذي لا يدعني أن أنام. لهذا كنت متعبة جداً وكنت أنتظر بفارغ الصبر اللحظة التي أتمكن فيها من الاستلقاء والنوم. ولكنني لم أكن أستطيع النوم مهما حاولت ذلك. حيث كنت أرى أمامي نفس ذلك النفق المظلم الذي كان بلا نهاية. إلى أن أرى طلوع النهار دفعة واحدة ويبدأ يوم جديد. إلهي كيف يمكنني أن أقضي هذا اليوم بكامل القدرة على الإدراك وأنا متعبة بهذا القدر؟

في إحدى هذه الليالي صرخت إحدى النساء فجأة وقالت كلامًا غير مفهوم وهي تبكي وتضحك في آن. كانت هذه إحدى الحالات العديدة التي تؤشر على اختلال التوازن النفسي عند النساء. عدت إلى وعيي وتذكرت كيف كان الحاج داود يقوم بتعصيب عيوننا ويمارس الضغط على أعصابنا وفكرنا وخيالنا بهدف أن يفقدنا توازننا ويهزمنا. لذلك رأيت لزاما علي أن أسعى لكي أنام وإلا سأصبح أنا أيضا غير متوازنة.

نعم، لقد كنت أخاف على نفسي من الانهيار وأخشى أن أستسلم أمام الجلاد ثم أنجر إلى الخيانة. هل سأكون أنا أيضًا واحدة من أمثال هذه الكائنات المثيرة للاشمئزاز التي تبدو مستعدة لأن تقتل الجميع لأجل راحتها وبقائها؟! لا!....إلهي لا! استجب دعائي! ألم تقل أنت في كتابك الكريم "لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها"؟ ألم تر أن قدرتي أقل من أن أتحمل هذا العبء وأنها قد نفدت؟ ألم تقل في الإنسان "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد"؟ ألم تقل أيضا "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ"؟ إلهي ساعدني! ساعدني!

بعد هذه الدعوات الصادرة من القلب، بدأت أشعر أني استكنت واطمأن قلبي بذكر الله. كنت أقول لنفسي: يا هنكامة إن الله صادق. ان الله عادل. عليكِ أن تستمدين قوتك منه. ألم تتحملي الكثير حتى الآن؟ إذن أنت تستطيعين لأنك لا تريدين أبدا أن تصبحي مثل هؤلاء القاذورات. إذن تستطيعين أن تتحملي فكوني قوية. شدي عزمك وحاولي أن تنامي أو جِدي الطريقة المناسبة لذلك. أنت تعلمين جيدا كيف يريد العدو أن تصبحي عاجزة فتستسلمي، ويريد ذلك لكل أخواتك المناضلات أيضا. ولكن حتى لو استسلمتِ، هل سيتركك وشأنك ويُخلى سبيلك؟ كلا، لن يفعل ذلك. بل سيجرّك إلى عمق وحل الخيانة والجريمة. لذلك قرّرت أن أصمد وأزيل من ذهني كل تفكير سلبي. وأن أركز تفكيري كل ليلة على ضرورة النوم. فبدأت أعِدّ مع نفسي أشجار حارتنا وشبابيك بيتنا ثم عدد شبابيك القسم الداخلي للطالبات. وكذلك عدد أقسام المستشفى الذي عملت فيه منذ البداية. واستمريت أعِدّ وأعِدّ حتى لم أعُد أعلم متى نمت. لقد انتهى الأرق القاتل. فانتصرت!.

في تلك الأيام من السنة كان النهار طويلاً جداً. لذا قسّمت أوقاته لأجل انقضائه وعدم الشعور بثقله. لاسيما وأنهم كانوا يوقظوننا في الصباح الباكر. لذا كان يجب علينا أن نقوم ونجلس وعادة كان يبدأ ذلك اليوم الطويل من الخامسة صباحاً. لذا كان ينتابني التعب في بعض الأحيان وأصاب بالإنهاك من شدة التفكير والتكلم مع نفسي، فأصبحت أضع رأسي على ركبتي وأنام. وسرعان ما كانت تنتبه الحارسة فتضربني على رأسي وتقول لا تنامي.

كان النوم وحتى الإغفاء ممنوعان طوال النهار وحتى منتصف الليل وبهذه "التهمة أو الجريمة" كان المرء يتعرض للضرب تحت أي ظرف. وهذه أسوأ حالة يتعرض لها فتؤثر على قواه تماما مثل الحالة التي تفرض عليك أن تجلس في القفص بصورة لا يخرج فيها رأسك عن ارتفاعه الذي يبلغ نصف متر فقط. وفي حالة المخافة تتعرض إلى ضربات الكيبل ولكمات الحراس التي كانت تضطرك إلى أن تحني رأسك. إذن لأشخاص مثلي طويل القامة يجب أن تجلس وتنحني في الوقت ذاته بكل ما في ذلك من ضغط جسدي وعذاب نفسي.

وعلى نفس النسق يجب ألا يُسمَع أثناء تناول الطعام أي نوع من الأصوات مثل اصطدام الملعقة بالإناء، وإذا حصل ذلك فلا غرابة أن يُتهم الفاعل بالاتصال مع القفص المجاور وإرسال إشارات إليه. فكان الضرب والتعذيب ينتظرانه أيضا. هكذا فعلا كان الإنسان هناك معرضا في أي لحظة لحادثة تؤدي إلى معاقبته بلا رحمة، حيث كانوا يشيعون الشعور بعدم الأمان والخوف من خطرغيرمرتقب واستمرار حالة الاضطراب داخل كل سجين. وفي هذه الظروف كنت دائمة التفكيروالتساؤل مع نفسي: إلهي.. إلى متى أستطيع التحمل؟

لهذا السبب قررت أنني حين أشعر بعدم التوازن أن أُقدم على الانتحار، وقد أعددت خطة لحرق نفسي بالطباخ المخصص لإعداد الطعام الذي كان لدى الحارسات. لأنه يبقى متقدًا على الدوام. وقد أقسمت قبل أن أقدم على هذا الفعل أن أسحق رأس كل من الجاسوستين القذرتين في نفس المكان وأحرقهما معي. وعلى ذكر الجاسوستين وغيرهما، أعود للتذكير بأن المجرم الحاج داود كان يأتي كل يوم لتفقد جهازه وكان يتبجح في كلامه بهدف دحرنا ودفعنا إلى الانهيار قائلاً: لن يغيثكن أي شخص، حتى حبيبكن مسعود غير موجود. إلا أن تعزمن على أن تعدن إلى رشدكن، والمعنى المقصود هنا في منطق الجلاد أن تتغيرن وتصبحن جاسوسات وتوابات.

سارالحاج على هذا النهج كل يوم استنادا على تقرير التوابات أو البرنامج الذي كان يطبقه. فكان يختار يوميا مجموعة من السجينات ويعمل على جلدهن مع أمرهن بالتوبة، وأحياناً

كان يأتي دون أن يحدث صوتًا لكي يباغت إحدى السجينات بوطأة ركلاته ولكماته. فتسمع أنينا أو ضربة رأسها. ولا يُنهي قدومه المفاجئ هذا إلا بالسب والشتم قائلا: "ما زلتِ لم تعودي إلى رشدك" أو ما شابه. بينما لم أكن أسمع أي صوت من السجينة التي كانت بجواري قط.

أنا أيضا في أحد الأيام كنت هدفًا للهجوم عندما شعرت فجأة ان شيئاً ثقيلاً وقع على رأسي بقوة وأن رقبتي قد دخلت في صدري، ولم أعد أقوى على الرؤية بعد ان أصابني الدوار وضعُف بصري ثم سمعت صياح الحاج داود وسرعان ما بدأ ينهال على رأسي بلكمات قوية تعكس مدى حقده علينا.

كم سئمت من هؤلاء التوابات والجواسيس إلى درجة لو أنني امتلكت سلاحاً لقتلت قبل الجلاد الحاج داود تلك المدعوّة كشتابو أو أخريات من مثيلاتها. لأن هؤلاء الجاسوسات الخائنات بائعات الإنسان كنّ يكتبن التقاريرالمحرّضة علينا. كاتهام سجينة موجودة في القفص المجاور لي إثراصطدام ملعقتها بالإناء بأنها تنقر على الإناء بطريقة معينة لأجل الإعلام بأحد وتزويده برسالة ما، علما بأن جميع السجينات في القفص كن يتناولن الطعام وهن معصوبات العيون. فهل من الغريب أن تصطدم الملعقة بالإناء كي تجري فبركة هذه التقارير المليئة بمثل هذه الأكاذيب؟

كانت الظروف قاسية وأحياناً كان ينفد صبري وكنت أصاب بالارتباك! آهٍ من هذه العصبة اللعينة! كنت أشعر أن أهدابي تنغرس في عيني إلى درجة تمنيت فيها أن لا تكون لي عينين. إلهي ساعدني! فإنك قلت في كتابك الكريم: (لا يُكلّف الله نفساً إلا وُسعها) وأنا ليس بوسعي الاستمرارفي تحمل ذلك؟.

حتى الجلوس بحد ذاته أصبح مشكلة بالنسبة لي،لأني إذا جلست لشهور كنت أشعر بألم شديد في كل أنحاء جسمي. لهذا عندما كنت أتقلّب أشعر وكأن إبراً تنغرس فى جسدي . وهكذا كنت في قلق مستمر وشعرت يوما كأن إحداهن اقتربت مني قالت السلام عليكِ يا هنكامه! عرفت صوتها المدلل والصبياني. إنها (شعلة) إحدى التائبات الخائنات. كانت في

غرفتنا بسجن إيفين وها هي الآن قد أصبحت هنا إحدى جاسوسات الحاج داود للمهمات القذرة.

- قالت: آه! ما زلت تجلسين؟! ابتسمت وأنا استذكر على الفور مواقف وأفكار سابقة، وقلت لها نعم.. هل لديك شكوى؟ فأجابت وهي تشعر بالخيبة: ما زالت هذهِ تُضحك، حقًا ما أوقحك! ثم انصرفت.

من المؤكد أنهم كانوا يودون ألا نجلس ثانية أبدا. إنه عدو قذر كان ينتظر فريسته كالضباع، ولكن الله ساعدني مرة ثانية عندما وجدت العدو أمامي.

رتبتُ العصبة الموجودة على عيني بحيث أنظر من فوقها ولو قليلا دون أن تبدو قد تحركت من مكانها. وكان هذا كافياً بالنسبة لي. كما وجدت طريقة للجلوس. سُترتي المنسوجة!.... لماذا لم تخطر على فكري قبل هذا الوقت؟ نفسها التي أرسلتها لي خالتي (ماخالا)، إنها ناعمة وسميكة فوضعتها تحتي في النهار وكانت وسادتي في الليل. ما أروع هذا الذي أرسلته خالتي الحنونة ماخالا. وكأنها كانت تعرف الأماكن التي سأحتاج فيها إلى الاستفادة منها.

في الأصل تدعى خالتي (ماهي) ولكننا أخذنا نختصر اسمها ومعه كلمة(خالة) أيضا فنناديها (ماخالا). ومع أنه لم يسمح لها بزيارتي طوال مدة حبسي لكنها لم تتقاعس وكانت تأتي أمام السجن وهي تحمل لي في كل مرة شيئاً مثل السترة الطوسية التي حاكتها بنفسها وجلبتها لي فشكرتها مرات عديدة في داخلي.

في تلك الأثناء سمعت صوتا يوحي بتناول الخبز اليابس. دققتُ النظر فوجدته من جهة يساري. إنها زهرة. إذن قد تم نقلها إلى القفص أيضًا، لكي يقوم الحاج بضربها وتعذيبها باستمرار ولهذا كان صوت أنينها وصدماتها القوية على الجدار المقابل تُسمع من جهتنا.

كنا في شهر رمضان، ولا أعلم كم مضى من الوقت. كنت أنتظر هزيمة الحاج داود وينهي عملية تدريب و إعداد التوابات ويبحث عن أساليب جديدة.

في ليلة وأثناء فترة الإفطار فجأة ارتفع صراخ إحدى السجينات. كان كلامها غير مفهوم، تارة تبكي وتارة تضحك. فقدت توازنها النفسي. لا أعرف من كانت وما الذي حصل لها. وحصلت هذه الحالة عدة مرات بأن التوازن النفسي للسجينات يختلّ. فقلت لنفسي مرّة أخرى يجب علي أن أكون واعية وأنتبه. لإن الحاج داود يريد إخلال توازننا عن طريق تعصيب عيوننا والضغط على أعصابنا وفكرنا وخيالنا ومن ثم الوصول إلى رغباته.انتهى فصل الربيع وحان فصل الصيف. وها أنا ما زلت هنا منذ ما يقارب سبعة أشهر ولم يظهر أمامنا الحاج داود لعدة أيام. لذلك كانت همسات التوابات قد ازدادت وأصبحن قلما يزعجن السجينات رغم أنهن يبدون مرتبكات وغير مطمئنات البال.

في أحد الأيام نادوني في الصباح وأخذوني وقالول لي ما لم أتوقعه: شخص يريد زيارتك! نعم، ها هما بعد سبعة أشهر أبي وأمي المسكينان جاءا لزيارتي. ذهبت إلى غرفة الزيارة كانا واقفين خلف القاطع الزجاجي وكان يقف حرس بجانبهم وحرس بجانبي. لم يتحمل أبي. حينما رآني بدأ بالبكاء. أما والدتي فكانت امرأة قوية تمالكت نفسها. قلت لهما لا تبكيا، وضعي جيد، إني قلقة فقط بسبب عدم ارتياحكم هذا.

ما زال أبي لا يستطيع التحدث فكان ينظر إلي ويبكي. فأدركت جهدهما الدؤوب ومساعيهما الحثيثة لمدة سبعة أشهر. اشتكيا خلالها إلى كل لجان النظام حتى استطاعا الحصول على موافقة للزيارة. آباء وأمهات كثيرون أيضاً فعلوا مثل ذلك، وما زالوا لا يعرفون شيئاً عن أبنائهم.

في اللحظة التي غفل فيها كلا الحارسان أشرت بيدي إلى أبي الذي ما زال يبكي بعلامة النصر. فاستغرب كثيراً وابتسمت في وجهه قائلة لا تقلق علي! أنا لست طفلة ولا يزعجني إلا عدم ارتياحكما. أردت بذلك أن أشعرهما بأن موضوع السجن مستمر. كما كان لدي شعور بأن شيئاً ما قد حدث وإلا لماذا سمحوا لهما بأن يلتقيا بي؟.

إلحاق الهزيمة بجهاز إعداد التوابين

بعد هذا كنت أصبحت أرى الردهة من مكان الصلاة أيضا فكنت أرى أن عدد الحقائب قد بدأ يقل وأنهم أخلوا بعض الأقفاص. فظننت أنهم سينقلونني بسرعة إلى مكان جديد.

في أحد الأيام كنت أتفرج على صف النمل الصغير الذي كان يتحرك في جانب من الحائط. وكنت أراقب حركته منذ سبعة أشهر وحتى تآلفت مع النمل. وكنت اميّز مجموعة منهم عن غيرها وعرفت عاداتها وسلوكياتها. كانت لهم علاقة عجيبة مع الذباب أكثر من أي شيء. فحينما كانوا يمسكون إحدى الذبابات ليسارعوا فورا إلى إخبار بعضهم الآخر وكانوا يهجمون على شكل مجموعة على "جثتها" الميتة أو المحتضرة ليفصلوا في البداية رأسها وينقلونه إلى "مساكنهم". ثم الأيدي والأرجل وفي النهاية جسدها الكبير ولكنهم كانوا يحملون أجنحتها الظريفة التي قد فصلوها ويلقونها في مكان أبعد من باب مساكنهم، حيث تجمع هناك "جبل" من أجنحة الذباب وما زلت مندهشة من عملهم هذا ويبدو أن طعم جناح الذباب لم يكن لذيذاً أو كان غليظاً أو أمرًا آخر.

وبينما كنت مندهشة من قدرتهم على مثل هذا العمل سمعت صوت تنفس أعلى رأسي. كان رجلاً غير معروف لي سلّم علي. سألته من أنت؟ قال لماذا لم تردّي على السلام؟ كررت سؤالي: من أنت؟ قال عبد الله! أدركت أنه ملاّ أو حرس. والخلاصة كان عنصرًا جديدًا. ولكن كنت أريد أن أكشف هويته لا أكثر. فقال لي جئنا لنتحقق من حقيقة وضعكن. قلتُ لست مستعدة للحديث في مثل هذا الموضوع. فعلم أني لن أستسلم له ولا أريد التحدث معه. وبين أخذ وردّ قال لي: جئت لكي أتحقق عن حقيقة وضعكن إذ وردت شكاوى إلى مكتب السيد منتظري. والآن جئت لأسمع منكن ماذا تفعلن. دفعني سؤاله المثير للسخرية إلى الضحك فقلت له أن عيني معصوبة وعيونكم والحمد لله طليقة. أنت ترى بنفسك فلماذا تسألني ثانية؟ رجاء إذهب. ليس لدي ما أقوله لك. حالي جيد أيضًا. مع السلامة! وأنزلت رأسي إلى الأسفل. هو أيضًا قال: مع السلامة أختي، ثم انصرف.

بعد ذلك بدأوا شيئاً فشيئاً بإفراغ أماكن الأقفاص. ثم جمعونا كلنا ونقلونا إلى غرفة في الوحدة رقم(3) وأطلقوا عليها اسم (قرنطينة) وتعني الضمان أو التأمين.

عودة ظافرة دخلت إلى هذه الغرفة ولم تعد عيناي معصوبتان كذلك كانت كل السجينات هناك. كنت أريد بنظرة خاطفة أن أرى أي واحدة من زميلاتي موجودة هناك، كانت(أعظم) وعدد من سجينات الردهة رقم(7) يجلسن في زاوية الغرفة.

أسرعت نحوهن بسعادة وعانقتهن وأنا في حركة مستمرة. قالت (أعظم) التي جلست بصمت في الزاوية: هنكامة اجلسي واصبري قليلاً لنرى ما الخبر! فأدركت أني كنت أتصرف باندفاع كبيربينما ما زالت الظروف والأجواء الجديدة غير معروفة بالنسبة لنا. هدأتُ قليلاً. لم يكن الموقف في السجن كالمعتاد. أي سادت أجواء من الصمت والحيرة غير الطبيعية. كانوا قد نقلوا إلى هناك عددًا من سجينات الوحدة السكنية اللواتي أصبحن يعانين من أمراض نفسية. وشاهدت حالات مختلفة كأمثلة على ذلك. يا إلهي! ما الذي حدث لهن؟ لماذا أصبحن مصابات بهذه الأمراض؟

في تلك الأثناء فُتح الباب وأدخلوا إحدى الأخوات إلى قرنطينة. كانت نحيفة وترتدي معطفاً كحلي اللون وتضع نقاباً على وجهها ثم انصرفوا. تقدمت ووقَفَت وسط الغرفة تشخص بعينيها أمامنا وهي تمسك بمصحف صغير. قالت لها إحدى النساء باستغراب وحيرة: فرزانه، لماذا أصبحتِ بهذه الصورة؟ وقبل أن أنسى علي أن أوضح من هي فرزانه. إنها من السجينات القديمات في سجن (قزل) استطاعت أن تنال "ثقة" الحاج داود ثم هربت من السجن. ولكنهم اعتقلوها ثانية ووضعوها قيد التعذيب. وها هم قد نقلوها الآن إلى هنا. وهي مضطربة وصامتة وفي وضع نفسي سيئ. حتى أنها تبقى واقفة أو تجلس لساعات وأحياناً تستمر طويلا على هذه الحال. لقد كان أمرًا غريبًا بالفعل أن تقف طوال تلك المدة بدون طعام أو ماء أو حتى الذهاب إلى المرحاض. وفي الحقيقة لقد أصبحت رؤيتها بهذا الوضع تمزّق قلب الإنسان إشفاقاً عليها. دون أن يدري أحد فظاعة ما فعلوه بها. وها هي مثل بارز على ما حلّ ببعض المريضات نفسيا.

من سجينات الردهة رقم (7) اللواتي كن موجودات هناك (سبيده) و(مريم) و(أعظم) و(زهرة جاوشي). نادوا على زهرة مرة ثانية وما زال الحاج داود يمارس شتى أنواع

الضغوط عليها لكي تتوب حتى يطلق سراحها. كانت عائلة (زهرة) من اتباع النظام وكانوا يضغطون عليها علماً بأنها لم تُعتقل بتهمة سياسية ولا يملكون أي دليل يبرر الاستمرار في حبسها. كانت مشكلة الحاج الدجال أنه لا يستطيع القول لأتباع النظام أن السجينة التي لم تكن في الخارج نصيرة لمجاهدي خلق قد أصبحت تحت قبضته نصيرة لهؤلاء المجاهدين. ولهذا كانت كل مساعيه ترمي إلى إلسيطرة على زهرة ودفعها إلى الانهيار. ولكنه أصبح عاجزًا عن ذلك. قالت زهرة حول هذا الجانب: حينما كنا في القفص أخذني الحاج داود في البداية إلى الخارج وقال يجب أن تتوبي وإلاّ سأضربك إلى الحد الذي تموتين فيه: ، فردّت عليه: أنت تريدني أن أتجسس، لن أفعل ذلك! ولن أعطيك أية معلومات تؤذي الآخرين ولن أكتب كلمة واحدة. إفعل ما شئت. فما كان من الحاج الذي أصيب بارتباك شديد إلا أن بدأ يضربها بقسوة وهي تصرخ تحت وطأة أيدي وأقدام الحاج المجرم عديم الشفقة: إذا كنت رجلاً افتح وثاق يدي وعصبة عيني لكي نرى من يضرب من أيها الجبان القذر!

أمام هذا الوضع أصبح الحاج داود متخبطاً في تصرفه وانفعاله. وقد اضطروا في النهاية إلى إطلاق سراح زهرة البطلة. ثم رأيتها خارج السجن فيما بعد عندما كانت تود الالتحاق بجموع مجاهدي خلق في العراق، لكنني عدت وفقدت التواصل معها. ولم يُعثر على أي أثر لها مما يؤكد اعتقالها من قبل النظام واستشهادها في زنازينه منذ سنوات طويلة.

كان يوجد في قفص قرنطينة سبعة من السجينات الماركسيات اللواتي نَقلَهُن الحاج إلى القفص. أربع منهن فقط قاومن فنقلن إلى سجن قرنطينة مؤخرا. ولم يخفين علينا أنه لم يبق في سائر السجون سجينة واحدة ممن يسمون بالماركسيين لأن جميعهن أصبحن توابات!

أما شهناز وهي إحدى هؤلاء السجينات المقاومات الأربع فكانت تقول أن الحاج أصبح متخبطاً في الآونة الأخيرة بسبب عجزه وقد قال لنا نحن الأربعة يكفي أنكن تنحين وتستقمن لتُظهِرن أنكن تُصلين. لهذا سأنقلكن إلى الردهة العامة، لكننا رفضنا ذلك. إنهن نساء ناضلن بشرف وكنّ مسؤولات عن كلامهن وعملهن وقد دفعن ثمن ذلك أيضًا.

الفصل السادس

«الوحدة السكنية»

تفشّي الأمراض النفسية نتاج التعذيب النفسي

كنا مقبلات على أيام عصيبة، بعد أن أشاعت المصابات بالأمراض النفسية أجواء خانقة على الجميع، وهذا أسلوب جديد في التعذيب النفسي بدأ من ردهة قرنطينة. كنا نرى أحد مظاهره في تصرفات فريدة التي كانت تمشي وتسبّ الجميع كما تسبّ نفسها أيضا. وأحياناً تضرب نفسها. مثل هذا التصرف وما يشبهه جاء نتيجة إشعال فتيل الفتنة بين المساجين. وكان من نتاج سجن "الوحدة السكنية" حيث كانوا يعذبون السجين من خلال التمويه له كَذِبا وهو تحت التعذيب أن فلانا أبلغ عنك وأنه يقول أنك فعلت كذا وكذا. وكانوا يواصلون التعذيب إلى الحد الذي يصدّق فيه أن هذا الكلام صحيح وأن صديقه قد خانه فعلا. ثم يدفعونه إلى أن يكشف للآخرين هذه "الحقيقة" بعد أن ينتزعوا منه اعترافات يمكنهم من خلالها جعله وسيلة لممارسة الضغط على الآخرين. ثم كانوا يواجهونهم أمام بعضهم الآخر و... وبهذا الشكل كانوا يولدون عدم الثقة والكراهية بين السجناء أنفسهم. لهذا السبب كان هؤلاء الأشخاص يخافون حتى النظر إلى بعضهم البعض. ويفضلون الجلوس لوحدهم ساعات متجهين نحو الجدار حتى لا يحتكوا بشخص يكون سبباً في تعذيبهم. هذا ما ذكرته لي (شكر) فيما بعد.

فريدة هي الأخرى كانت تشتم الجميع وقد حطمت أعصاب الجميع. وفي أحد الأيام تفوهت بكلام بذيء على مسعود. وكان هذا تصرفا غريبا لم تُقدِم على فعله من قبل. فجأة وثبت شهين جلفازي وأمسكت بتلابيب ثوبها وسحبتها بقوة. صمتت فريدة، وبينما كانت شهين تشدّ على وجهها بين يديها قالت لها: "أنصتي إلى ما أقول، كوني مجنونة، أو منهارة أو مريضة، كوني أي شيء تريدين، تستطيعين أن تشتمي نفسك، ولكن إذا ذكرت اسم مسعود ثانية سأقتلك! هل فهمتِ جيداًهذا الكلام؟ ". هزّت فريدة رأسها علامة لقبول كلامها. فتركتها شهين التي عُرفت بشجاعتها والتزامها وعادت لمكانها.

بعد عدة ساعات من ذلك أخذوا شهين وضربوها بشدة، وأعتقد أنها نقلت من الردهة رقم (8) إلى هذا الردهة. وقد أعدمت لاحقا كالكثير من أخواتها المناضلات في أحداث مجزرة عام 1988 بعد أن قضت سنين طوالاً داخل الأقفاص التأديبية لسجن إيفين. ويبقى القول أن فريدة لم تتفوه بعد ذلك بكلام بذيء آخر على مسعود وكانت تحترس وتتذكر جيداً ما قالته لها شهين.

كانت (شور أنكيز كريمي) هي الأخرى في قفص قرنطينة. في البداية لم اعرفها لأني رأيتها قبل السجن وهي كانت فتاة يافعة وصغيرة السن. ولكنها اصبحت الآن وبعد ثلاث سنوات تقريباً تبدو مسنة وكأنها كبرت ثلاثين سنة. صارت عيونها غائرة وقامتها منحنية. وفي أحد الأيام جاء الحاج داود إلى الردهة، وكالمعتاد قال كلامه الفارغ وأكاذيبه، ثم قال فجأة أين الدكتورة.. السيدة (شوري)؟ فتذكرت مرة واحدة أن هذه المرأة المسنة نفسها (شور أنكيز) طالبة الطب التي قد زارتنا مرة في بيتنا. وحينما ذهب الحاج سألتها: هل أنت شورانكيز؟ أجابت بالإيجاب. فسألتها إذن لماذا لا تتجاوبي معنا؟ ابتسمت كالعادة. فتذكرت ان النساء اللاتي يعتبرهن النظام ناشطات وذات موقع مهم كان يضعهن تحت المراقبة الشديدة لذلك كن يسعين أن لا يتفاعلن مع السجينات كثيراً لكي لا يتسببوا لهن بالأذى والتعذيب.

كانت شورانكيز تتعرض للتعذيب الوحشي من قبل النظام. وقد خُلع مفصل كتفها أثناء الأيام الطويلة التي علّقت فيها من ذراعيها والآن أصبحت نصف مشلولة. ورغم هذه الحالة كانت شورانكيز تنجز أعمال الردهة على أساس برنامج العمل ولا تترك أي شخص يقوم بذلك مكانها التزاما منها بدورها. كانت شورانكيز تمتلك طمأنينة عجيبة وذات أعصاب هادئة جداً. وكان الحاج لهذا السبب يركز عليها بشدة. وبالرغم من كل أساليب التعذيب التي تعرضت لها بقيت صامدة بكل شجاعة وثبات. لم تُنقل إلى الردهات العادية قط وكانت دائماً في الأقفاص التأديبية حتى أعدمت أخيرًا ضمن مجازر السجناء السياسيين عام 1988.

جاء أحد الملالي وهو يدعى أنصاري يوماً إلى ردهة قرنطينة وقال: نحن جئنا نيابة عن السيد منتظري لنتحقق من وضع السجون إذ وردت بعض الشكاوى تفيد أن أعمالاً فردية ترتكب و(الإمام) لا يعلم بذلك و.....

لقد كان يكذب بكل وقاحة وبصورة علنية. لأن خميني الجلاد نفسه كان يؤيد أحكام الإعدام وهو الذي أسند صلاحيات مطلقة لجميع المحققين والجلاديين وأحلّ لهم أرواح وأموال وأعراض مجاهدي خلق. أما الآن فإن هذا الملا المخادع يريد لكلامه أن ينطلي علينا، كان يظن أنه يواجه حفنة من أنصار النظام. استمر في حديثه قائلاً: أنتن أيضا نساء مسلمات نحن نريد أن نطلق سراحكن. نحن نريد منكن أن لا تحملن السلاح لا أكثر. أليس الناس يشتمون حاليًا حتى الإمام (خميني) نفسه؟! من يعترضهم؟ أنتن ألقيتن السلاح على الأرض فقط! أجابته إحدى النساء قائلة: عفواً سيدي أي منا كان عندها سلاح حتى يجب علينا أن نلقيه الآن على الأرض؟.

قال الملاّ: نعم، نحن نعلم أن الكثير منكن لم يرتكبن جريمةً بهذه الصورة وها نحن جئنا لنتحقق من هذا واستمر على هذا المنوال في حديثه. فأدركنا أن هناك صراعات داخل النظام فيما يتعلق بموضوع السجون. وخاصة بعد الأعمال الحمقاء التي ارتُكبت فيها فضلا عن حرمان أهالي السجناء من زيارتهم.

وبعد ذلك بفترة نادوا مريم محمدي بهمن آبادي. وحينما عادت كانت مسرورة جداً وسارعت لاحتضان إحدى الزميلات التي كانت بجانبها وأخذت تدور بها. سألناها ما الخبر؟ قالت أعفوا عني. نحن أيضا سررنا وقلنا يعني سيطلقون سراحك؟ قالت لا، خففوا الحكم المؤبد إلى (15) سنة! ساورنا الحزن من هذا الخبر وقلنا هذا لا يدعو إلى السرور! فتساءلت: هل اعتقدتن في الحقيقة أني بسيطة إلى هذا الحد كي أتصور أنهم سيطلقون سراحي؟ لا! فكروا فقط بـ(كشتابو) والبقية! هؤلاء القاذورات اللواتي ينتظرن انهيارنا. ولكنهن حالياً أصبحن مهزومات. أعدمت مريم هي الأخرى ضمن مجازر السجناء السياسيين عام 1988.

بعد مضي شهرين تقريباً على وجودنا في ردهة «قرنطينة» أي في أواخر صيف سنة 1984 أعادونا ثانية إلى الردهة رقم (7) على شكل مجموعة تتضمن عشر سجينات. كنت أتوق إلى رؤية صديقاتي وزميلاتي. دخلنا الردهة فاستقبلتنا السجينات بحفاوة. ولكن عددهن كان أقل بكثير ولم تكن أغلب السجينات موجودات من أمثال عاتقة ومريم وعطية الصغيرة. وذكرن أنهن نقلن إلى مدينة (بابول) الواقعة شمالي إيران. وبعد أن عانقنا الزميلات ذكرن أن عدداً كبيراً من السجينات نقلن إلى الردهة التأديبي رقم (8) وكذلك نقلوا مجموعة أخرى إلى الأقفاص الأخرى.

جاءت زهراء إحدى الزميلات وعندما احتضنتني بدأت تبكي قلت لها: لماذا تبكين؟ قالت: لماذا أصبحت بهذه الصورة؟ نظرت إلى نفسي في المرآة، ورأيت بشرتي أصبحت بيضاء بسبب عدم تعرضي للشمس لمدة تسعة أشهر. كذلك أصبحتُ نحيفة وأصبحت خصلة من شعري في الأمام بيضاء اللون وأني لا أعلم متى حصل ذلك. حتى ان بعضهن كان يقول إنكِ أصبحتِ تشبهين (إنديرا غاندي).على أية حال كنا نمازح جميع الزميلات وكنا نشعر بالسعادة. فجاءت إحدى الزميلات وقالت: كانت (كشتابو) وزمرتها يأتون باستمرار ويقولون: سترون في وقت قريب زميلاتكن في المقاومة في مقابلات تلفزيونية للتعبير عن الندم وكانوا يشيعون أنكن أصبحتن منهارات. خلاصة القول كانوا يريدون زعزعة إرادتنا ولكنهم لم يفلحوا فقد كنا نعلم أنكن غير منهارات ولم تخن.

في هذه الأجواء لم نعد نسمع همسات التوابين والجواسيس. حيث أنها كانت قد وصلت الى إدارة السجن وكان هذا بسبب الاختلافات والشروخ الموجودة في إدارة السجن و سبب الكلام الذي كان يتحدث به الملا أنصاري. وفعلاً كان كل شيء ضدهم ولم يكن يساندهم أي شخص وقد ألقى مسؤولو النظام كل هذه الأفعال على عاتقهم وكشفوا أسبابها. كان لدى التوابين خوف حقيقي من السجناء أنفسهم، لأنهم كانوا يعرفون كم من الدماء أريقت بسبب خيانتهم.

كان هذا الخوف يساور المحققين والجلادين أكثر من أي شخص. لذا كان الحاج داود والجلاد(لاجوردي) يعيشان في السجن ولا يخرجان منه. كذلك نقل الحاج داود زوجته وأطفاله إلى السجن وكان يعيش هناك. كان المحققون لا يحضرون بدون نقاب حتى أمام مجاهدي خلق الذين كانوا تحت الإعدام، فبينما كان المحققون خائفين إلى هذا الحد فمن الواضح كيف كان وضع التوابين والتوابات.

وقع نظري فجأة على (الأم معصومة) في الردهة رقم (7). إني لم أنتبه أنها كانت (معصومة إيلخاني) ذاتها. لأنها أصبحت أنحف بكثير وأصبح شكلها هزيلاً مهزوماً. ذهبتُ نحوها وعانقتها وبصورة عفوية وضعتُ يدي على ظهرها متفقدة ضفائرها. لكن لم يكن لها أي أثر سوى ضفيرة صغيرة وقصيرة. سألتها: أين شعرك؟ نظرت إلي بعطف وقالت: اتركي ذلك! ما فائدة الشعر في الوقت الذي رحل أفضل زميلاتنا وذوينا. كانت تبدو لي حزينة جداً ولم يكن هناك وقت لإكمال الحديث.

حل الليل وكنا لا نزال نتحدث مع الزميلات. بقيت كشتابو ثابتة ومستمرة في مراقبتنا وحينما جلست وكنت أتحدث مع جميلة، جاءت طاووس نفس تلك القذرة التي كانت أحد الأسباب في إرسال السجينات إلى سجون القفص والتابوت والوحدة السكنية وجلست بكل وقاحة بجوارنا وقالت: السلام عليكِ هنكامة! هل أنت بصحة جيدة؟ كنت أعلم أن كشتابو أرسلتها لكي تتجسس، فقلت لها: اخسئي يا خائبة! من قال لك أن تأتي وتتحدثي معي؟ اخسئي وابتعدي عني. قامت كالفأرة وذهبت. قالت جميلة: ياهنكامة لماذا قلتِ هذا؟ سينقلونك غداً إلى الردهة رقم (8) فأجبتها أرجو من الله أن أذهب إلى الردهة رقم (8) لأن شكر هناك. والحقيقة لم أعد أخشى شيئاً ولم يكن مهماً بالنسبة لي. ماذا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك الذي فعلوه لحد الآن؟.

ذهبت في اليوم التالي إلى الباحة عند الأم معصومة وتحدثنا مع بعضنا، وسط حديثها وأثناء ما أرتني الصورالتي بعثوها لها خلال تلك الفترة، أرتني أيضا صورة ولدها الصغير الذي كبر وقالت إنها صورته قبل موته بعدة أيام! ظننت أني سمعت ذلك خطأ، قلت قبل ماذا؟

أكملت بهدوء: لا تقلقي، كل خيرة فتيان وفتيات العالم أعدموا بأيدي الجلادين: كبرى وفاطمة وأفسانة وناهيد وولدي واحد منهم أيضا، لماذا؟ هل كان ابني أفضل من أولئك الفتيان الذين اعدموا؟ في الحقيقة، خميني هو الذي قتله .

ذكرت الأم معصومة أن ولدها حينما كان يلعب في البيت، سقط من الشرفة وقتل. ومن أجل أن لا أقلق غيرت موضوع الحديث وعرضت لي الصورة الأخرى. كم كانت صابرة ووقورة.

جلست فتاة لم أرها من قبل قربنا على سلالم الباحة. كانت طويلة وذات وجه حنطي. فسألتني هل أنت هنكامة؟ قلت: نعم! قالت: أنت ممرضة؟ قلت: نعم من أين تعرفينني؟ قالت: عرفت من كلامك وحركاتك. لقد حدثتني شكر كثيراً عنك قبل هذا. أنت مثلما كانت تخبرني. أنا (مينا). سررت كثيراً وقلت لها أنت كنت مع شكر؟ متى؟ أين؟ قالت: بصوت خافت الآن اتركي ذلك! بعد إصرار مني قالت انظري، وضعي ليس على ما يرام. إني تحت المراقبة. أقول هذا لأجلك. يجب أن لا تتحدثي معي كثيراً. قلت: ليس لدي مشكلة. أرجوك، قولي لشكر...، تدخلت لأم معصومة وقالت لي بعتب: لماذا لا تنتبهي لذلك؟ لا يجب أن تتحدثيّ. من الأفضل أن تنصتي. لامتني وقالت: أنت مازلت بنفس الصورة دون حذر؟ فاضطررت أن أتوقف عن الكلام. كانت مينا المرأة الوحيدة من سجينات سجن الوحدة السكنية التي رأيتها متوازنة ولم تصب بأي مرض نفسي ولكنها كانت صامتة وحذرة.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأيت فيها الأم معصومة في هذا الردهة ولم أعد أرها حتى سمعت فيما بعد أنها أصيبت بمرض نفسي في السجن. في آخر زيارة لها أخبروها بموت ولدها الكبير أيضًا. يا من مصير غريب! إن ولدها هذا أخذه خاله لتسلق الجبال والتسلية فسقط وقتل. كلا ولديها قتلا في غيابها. وبعد أن سمِعَت فجأة خبر موت ولدها الثاني صمتت ولم تعد تتكلم بعد ذلك قط. أبقوها في السجن لمدة سنتين أخريين بعد أن عانت من حزن شديد وعدم توازن نفسي ثم أطلقوا سراحها بعد أن تأكدوا بصورة قطعية

أنها لن تعود مطلقاً إلى العيش بصحة جيدة. لم تذهب الأم معصومة إلى المحكمة مطلقاً ولم تُحاكَم، إذ لم يتم البت في ملفها طوال مدة حبسها. لأنها في الحقيقة كانت لم ترتكب أي جريمة قط. أي حتى في قانون هذا النظام لم يجدوا هناك أية جريمة يمكن أن تكون قد ارتكبتها. وعليه لم يستطيعوا أن يفعلوا لها شيئًا لأنها لم تُحاكم لتبقى في الأسر وهاهي في النهاية تصاب بأمراض نفسية ليطلقوا سراحها. لقد كانت امرأة لم يستطع سجن الشاه بكل تلك الضغوط وأساليب التعذيب. فقد كانت نهايته أن تثني إرادتها. ولكن في سجون خميني احتجزوها لمدة أربع سنوات دون ارتكابها أية جريمة. وعندما لم يستطيعوا أن يصدروا حكماً ظالماً ضدها عذبوها نفسياً.

في الحقيقة أن سجون خميني ليست كباقي السجون أبدا، بل يمكن تشبيهها بمعسكرات الموت النازية. علما بأنهم كانوا في تلك المعسكرات يقتلون الإنسان فقط. أما في سجون خميني فإذا لم يُقتل الشخص تحت التعذيب وإذا لم يُنقل إلى القفص والتابوت والوحدة السكنية والتي ليس لها مثيل في كل أرجاء العالم. وكذلك إذا لم يُصب بالأمراض النفسية ولم تُسلب وتُدمر نفسه السالمة تحت وطأة شتى أنواع الضغوط والتعذيب فقد كانت نهايته الإعدام في النهاية ضمن مجزرة عام 1988 بعد تحمل سنين العذاب على أيدي جلادي النظام. هذا النظام الذي لا يستطيع أحد أن يدرك مدى فظاعة سجونه ووحشية القائمين عليها إلا من سُجن فيها. ولا يمكن لأي تعريف أو مكتوب أن يصف ذلك لأن الكلمات التي يمكن أن تصف ذلك بدقة لا يمكن العثور عليها بدقة في أي قاموس لغة.

اللقاء مع حبيبتي شكر

بحلول الليل حدث نفس الشيء الذي كنا نتوقعه. نادوا مجموعتنا المكونة من عشر سجينات وأخرجونا وأوقفونا صفاً خلف باب السجن. وهذه المرة قد جاءت حارسة جديدة تسأل مَن هنكامة؟ قلت أنا، ولكنها لم تقل شيئاً. ويبدو أنها كانت تريد أن تتأكد أني موجودة أو من أنا؟ قالت باختصار ستُنقل إلى الردهة رقم (8) بسبب عدم التزامكن ورعايتكن لضوابط وقوانين الردهة.

كنت أريد أن أصرخ من الفرح والشعور بالسعادة يا إلهي، هل سوف أرى شَكَر؟. انطلقنا نحو الردهة رقم (8)، كنت أود أن أسرع غير أننا كنا نسير صفاً واحداً. فُتح الباب ودخلنا. كاد الردهة أن ينفجر من الفرح. يا إلهي! كانت أغلب سجينات الردهة رقم (7) موجودات هنا!.

كان حذائي في يدي وسقطت عباءتي وقد ألتفّت على قدمي عندما بدأت الزميلات يعانقننا من كل ناحية ويقبلننا. أما أنا فإن عيني كانتا تبحث عن شَكَر. ولكن الازدحام لم يسمح لي برؤية كل المكان. إذ أصبح نظري محدداً في نفس المكان. ومع ذلك رأيت شكر في جهة اليسار أمام الزنزانة رقم (3) كانت واقفة على أطراف أصابع قدميها وتلوح لي بيدها كي أراها. وصاحت باسمي ولكن صوتها لم يسمع بسبب ضجيج الزميلات. وفي نفس الوقت كانت تبكي، فصحتُ بصورة عفوية: شَكَر! وألقيتُ كل ما كان في يدي وحاولت أن أفتح طريقاً نحوها وسط الزميلات. كما حاولت هي أيضا أن تشق الطريق نحوي. وصلنا إلى بعضنا في لحظة واحدة إلهي.....! إنها نفس اللحظة التي كنت أنتظرها منذ ثلاث سنوات! وعانقت إحدانا الأخرى فوضعت رأسها على كتفي وهي تردد اسمي وتصرخ بصوت عال وبقوة وتبكي وكانت تمسح بيدها رأسي ووجهي. فبينما كانت تضع رأسها بين كتفي ورقبتي وتشدني إليها بقوة، كانت تردد: هنكامة! هنكامة! أنتِ كنت صديقتي الوحيدة ! أنت كنت صديقتي الوحيدة فقط! وفجأة اتجهت نحو الزميلات وقالت بصراخ: (إنها صديقتي الوحيدة! إنها صديقتي الوحيدة!) استغربتُ وانتبهتُ ثانية حولي! لقد تجمعت النساء حولنا على شكل حلقة وكنّ يبكين بصمت. هذا صوت شكر كنت أسمعه بكل وضوح بسبب هذا الصمت. وقد عانقتني شكر ثانية وهي تبكي، وأمسكت بكلتي يديها سواعدي وأخذتني صوب نفس الزنزانة التي كانت واقفة أمامها ووضعت يدها في يدي وجلسنا.

سألتها: هل وضعك جيد؟ كنت أنظر إليها. فكانت تبدو لي حزينة ومتعبة وقد أصبحت نحيفة جداً وسرّحت شعرها على شكل "ذيل الحصان"، نفس الشعر الذي كنت أصففه لها ثم أنفشه كي أثير حفيظتها مازال مرتباً ونظيفاً. رفعت يدي وعبثت شعرها وسألتها ثانية هل وضعك جيد؟ وكانت تنظر إلي بعيونها الباكية وكأنهالا تُصدّق ما ترى. ابتسمت

وهزّت رأسها. و حينما كانت تمر من أمامنا إحدى السجينات نظرت ألينا وابتسمت هي الأخرى بمحبة ومضت. تعقّبتها شَكَر بنظراتها وفي نفس الوقت قالت لي بصوت خافت، هنكامة! لا تثقي بهن! لا تثقي بأي شخص قط! ثم قالت ثانية وبصوت خليط بنشيج البكاء والتعب. كما لو كانت تذكرت شيئاً لأجل إثبات كلامها: "لقد كانوا يريدون أن يقتادوا والدتي إلى هنا، ليفعلوا ما يحلو لهم، أمي المسكينة، هنا.....إلهي.....!" وبينما كنت أهدئ من روعها وأمسح دموعها، قلت: شكر ما الذي حدث، ماذا فعلوا بك؟ من يريد أن يقتاد أمك إلى هنا؟ قالت: هؤلاء بالذات! أدركت أن وضعها غير طبيعي وقد أصيبت باضطراب وحزن شديدين.

غيّرتُ الحديث وبدأت أتفقد معها أحوال وأوضاع صديقاتنا السابقات وأقوال العوائل والمذكرات المضحكة والمواقف الطريفة التي واجهناها. تذكرنا شطائر ليلة الامتحان والشاي الذي كنا نعده في القسم الداخلي بتلصص وخفية. كذلك تذكرنا السيدة (كيلك) والسيدة (خسروي) والمدربات اللاتي كنا نؤذيهن! تذكرتُ تسلق شجرة التوت حيث ألقوا القبض علي في الوقت الذي لم آخذ فيه أي نصيب لي من ذلك التوت الذي اقتطفته. فكاد أن يغمى علينا من الضحك. كانت شكر قد جلست أمامي ضاحكة وقد جذب تصرفنا انتباه جميع نساء الردهة ولكنهن كن لا يتقربن إلينا.

تجربة الجلادين الجديدة لسحق الإنسان

قمت لكي أجمع أغراضي وقلت سأعود الآن لتناول العشاء مع بعضنا. أنتِ أيضًا اجلبي كل ما عندك! في الحقيقة ليس لدي أي شيء؟ وحينما نهضت وسرت قليلاً، نادتني (زيلا) بصوت منخفض في الزاوية. كنت لا أعرفها ولم نكن قبل ذلك مع بعضنا لكنها كانت زميلة شَكَر في الردهة. اقتربت منها فرأيتها تبكي وقالت لي هل تعلمين ماذا حدث؟ لقد كنا لا نعتقد أن شكر سوف تتحسن في أي وقت. اليوم عادت الحياة إليها من جديد. وأصبحت ممرضة سجننا العطوفة تستعيد حياتها الطبيعية بعد أن قبعت في سجن الوحدة السكنية. إنها كانت تبكي باستمرار وتجلس لساعات ووجهها إلى الجدار وكانت لا تتكلم مع أي

شخص، بينما التوابات القذرات قد تجمعن حولها. علما بأننا نحن لم نكن نستطيع أن نقترب منها مراعاة لوضعها حتى لا تتكلم معنا. لقد كانت تعاني من الوحدة والحزن. ومع ذلك لم تكن تتكلم مع التوابات لأنها كانت تخشى الجميع، ولكنهم لم يكونوا يخلو سبيلها.

ضباع! نفس الضباع التي كنت أعرفها الآن كانوا ينتظرون جثة شكر! كان لا يصدق أحد أن شكر التي كنت اعرفها أصبحت مثل بقية سجينات "الوحدة السكنية" غير أنها الحقيقة. فقد فقدت توازنها النفسي. ولكن لحسن الحظ لم يتمكنوا من تحويلها إلى جثة هامدة. فعلى الرغم من كل التعذيب الذي تعرضت له شكر إلا أنها لم تنس مسعود ومجاهدي خلق وبقيت تعايشهم في ذهنها وقلبها.

فيما بعد وفي إحدى المرات أردت أن أختبر كيف كانت علاقتها بالخائنات والتوابات اللاتي تجمعن حولها، وإلى أي حد تطورت علاقاتها وتعاملها معهم نظرًا إلى انهيارها النفسي، فسألتها: ماذا كنت تقولين لمن تجمعن حولك. نظرت إليّ باستغراب وسألت بلهجة منزعجة وعاتبة: هنكامة هل تظنين أنتِ أنني أصبحت خائنة؟! صمتَت قليلاً، ثم واصلت كلامها: إنهم كانوا يحاولون لكي أكون توابة، صحيح أن حالتي الصحية غير مرضية ولكني أفهم من هم هؤلاء وماذا يريدون حتى تحوّلو فجأة إلى عطوفين معي؟ كنت ومازلت لا أتكلم معهم. أنا لم أخن قط ولن أخون! ألا تصدقي؟ قلت: بلى، أصدق! وعندما تأكدت من ذلك تلاشت نظراتها الإستغرابية واستمرت قائلة:.. وحينما رجعتُ عندها أثناء العشاء قالت: يا هنكامة، قالوا لنا يجب أن لا نتناول الطعام بصورة جماعية ولا يحق لأي شخص أن يتناول الطعام مع شخص آخر إطلاقًا! وقالوا لنا أيضا يجوز لكُنّ أن تقلنَ فقط عبارة "تفضلوا واضربونا!. سألتها: من قال هذه الأباطيل؟ قالت الحاج داود. فأجبتها: طيب، طالما أنه ارتكب هذه الغلطة فنحن إذن نلتزم بذلك على أحسن وجه. الآن أنت تستطيعين أن تتفضلي وتضربيني، وبمزاح قالت أيضًا: تفضلي! أشكرك، وبدأنا بتناول طعام الخيار واللبن الذي أعطوه لنا، وسخرنا من الحاج داود وكل الجلادين والتوابين! كم كان طعام تلك الليلة لذيذاً!.

قالت: يا هنكامة أنت أصبحت مثل إنديرا غاندي، قلت: النساء يقلن نفس الشيء. إنه لأمر جيد أن نترك على الأقل أشياء مهمة للإنسان وضحكنا!. ثم قالت لا تُسرّحي شعرك وتجمعيه خلف رأسك، افتحيه! قلت: أتركه بهذه الصورة أفضل، قالت: لا. حينذاك يقولون إنك سياسية وسوف...، قلت: طيب ليقولوا.ثم تابعت:كنت أدرك أن هذه الأقاويل تعكس صورة عن الحجج التي يتذرعون بها إذ كان يعذبون المساجين بهذه الذرائع و قد أوصلوهن إلى حد الجنون. قلت: يا شَكَر انسى! سجن الوحدة السكنية! حالياً أنت موجودة هنا وانتهى ذلك لا تفكري به. وكنت أريدها أن لا تفكر بذلك المكان لكي تصل إلى توازنها النفسي. لأن أي تذكير به سيخلّ بتوازنها. لهذا فإن أي عمل يجب إنجازه في البداية أن يجري اقتلاع الأشياء التي غرسوها في ذهنها في سجن الوحدة السكنية وكنت أحاول ذلك لأن شَكَر كانت تصغي لكلامي بهدوء.

كان سجن "الوحدة السكنية" لغزًا بالنسبة لي. لغزًا مخيفًا وغريبًا ولكنني اكتشفت بشكل عام عبر ما كنت أسمعه من شَكَر والسجينات الأخريات أنه في ذلك المكان أي شيء أو أي عمل ينجز أو لا ينجز كان يؤدي إلى التعذيب. على سبيل المثال إذا كان يتكلم يقولون لماذا تكلمت! إذا كان لا يتكلم يقولون لماذا لا تتكلم! أي ليس هناك أي فرق قط سواء فعلت أم لم تفعل. لهذا السبب كانت السجينات فيه يتغاضين عن النظر وأداء السلام وإنجاز سائر الأعمال المعتادة. وكن يجلسن في مكان لساعات وأيام طويلة دون حركة ولا كلام مع أي شخص كان.

صفعة على أذن الطبيب الخائن

كانت معصومة جوشقاني في ردهتنا أيضًا. وكانت قبلها ممرضة في مستشفى(هزار تختخواب) أي مستشفى ألف سرير. وهي من الممرضات القديمات في قسم أمراض التدرن، ومن زميلاتي قبل طردها من تلك المستشفى زميلة لها وأذكر أنني رأيتها ذات مرة حينما ذهبت إلى المستشفى لأجل عمل عند شكر.

كان زوج معصومة أستاذاً جامعياً ومن العناصر النشطة للمقاومة في الجامعة. بعد أحداث 21 حزيران أعتقلها النظام نظرا لعدم تمكنه من اعتقال زوجها. وأصدر المحققون حكمًا ضدها بالسجن لمدة ثلاث سنوات على الرغم من أنها كانت مستقلة ولم تشارك في الفعاليات الخاصة بمجاهدي خلق. ولكنها كانت ترعى النساء في السجن. ولهذا السبب كان الحاج داود يوبّخها بشدة أمام السجينات ولكنهن كن يحببنها في المقابل. وعندما نقلت إلى الردهة رقم (7) ارتبطنا ببعضنا وأصبحنا صديقتين حميمتين وكانت نقطة التقائنا إضافة إلى مجاهدي خلق شكر ومن ثم مهنتنا.

كانت معصومة تشمئز كثيراً من التوابات والخائنات وقد عرفت في السجن جيداً حقيقة هؤلاء الخونة وكانت قد رسمت خطوطًا حمراء جدية بينها وبين باعة أبناء البشر (الخونة). نقلوها إلى العمل في المركز الصحي بسبب تخصصها وذهبت إليه في المركز الصحي بعد أن تدارست الأمر مع الزميلات. كان هناك شخص يدعى (الدكتور حسيني) الذي كان قبل ذلك عضوًا في منظمة «بيكار» (الكفاح) الإيرانية الماركسية والآن أصبح تواباً ووضع يده بيد (الحاج داود). ولم يكن لديه حتى في هذا المركز احترام لمهنته. وليس هذا غريبا لأنه لا يعود هناك أي مجال للحديث عن احترام شرف المهنة بعد التخبط في مستنقع خيانة الشعب. ولكن على أية حال كان ثمة أطباء في مثل هذه الظروف، وربما كانت لهم وجهات النظر مخالفة لمجاهدي خلق، إلا أنه كان لهم حدود مع الجلادين ولم يضربوا حرمة مهنتهم عرض الحائط. فكانوا يعالجون السجناء الجرحى والمرضى بحرص إنساني وشعور بمسؤولية المهنة وحتى أحيانًا كانوا يدفعون ثمن ذلك في مواجهة مع الجلادين. ولكن الدكتور حسيني كان لا يقوم بعمله بالنسبة لمعالجة مرضى الردهة رقم (8) الذي كان يعد تأديبياً للنساء المقاومات.

في إحدى المرات انفعلت معصومة بشدة بسبب موقف هذا الطبيب الخائن فاعترضت عليه. ولم يكن منه بهدف التزلف للحاج داود الذي كان حاضراً أن قال لها: ما الخطب! هل نزيلات الردهة الثامن بنات خالاتك حتى تحرصي عليهن إلى هذا الحد وتنفعلي لأجلهن! فوجهت إليه معصومة صفعة قوية على أذنه حتى أمام الحاج داود قائلة: كلا، يا عديم

الضمير! الخائنات هنّ بنات خالاتك وقامت بتبويخه. وبعد هذا الحادث تم نقلها هي إلى الردهة ذاته رقم (8) تأديباً لها، فأصبحنا نحن الثلاثة موجودات في نفس الردهة.

أرادونا فئران تجارب.. وأكثر أيضا

في هذه الأثناء جاء الملا أنصاري عدة مرات إلى الردهة رقم (8) وكان يعمل لأجل تبييض وتطهير ماضيه. فقال في أحد الأيام: يرسخ في ذهن الناس تصور سيئ عن هذا الردهة، في حين أنه مثل بقية الأقفاص! ونحن نريد أن نعلن هذا الردهة عادياً لكي نزيل هذا التصور من أذهان الناس فجاؤوا بعد ذلك وفتحوا باباً من الردهة إلى باحة الردهة رقم (7). كأنه بهذه الأعمال يتناسى وجود الزنزانات المغلقة والجرائم التي ارتكبها الحاج وحراسه في هذا الردهة وما ارتكبوه بحق السجينات وطمسهن من الذاكرة. في هذه الأثناء اختفى الحاج داود وحراسه وجاء مكانهم عدد من الجلادين الجدد وكذلك تبدّلت مسؤولية لاجوردي. في هذه الفترة والمرحلة القصيرة العابرة تمكنوا من إطلاق سراح عدد من السجناء. وكان عدد السجناء الذين خرجوا أحياء من السجن هم حصيلة هذه الفترة القصيرة.

تحسن حال شَكَر تدريجياً وإلى حد كبير عادت إلى وضعها الطبيعي. ولكنها مثلما كانت مهمومة وحزينة خصوصا عندما تتحدث عن سجن الوحدة السكنية، كانت تقول: إن الردهة الذي كنتم فيه في الحقيقة كان نفس الاستراحة التي كانوا يعطونها لنا، حيث نجلس متجهين نحو الجدار ونقضي النهار إلى الليل والليل إلى النهار. أنها كانت تتحدث عن الخونة بغضب وكانت تقول أنهم تسببوا في انهيار فاطمة وإلا لما كان بالإمكان انهيارها. يبدو أن الجلادين اغتصبوا فاطمة أمام النساء الأخريات ولك أن تفهم ماذا تقصد شكر من الانهيار أو الهزيمة هل كان ذلك باختيار ذاتي أم نتيجة خيانة الخونة. خصوصا وأنها كانت تقول وهي ترتعد تأثرا: إن هؤلاء (الحرس) كانوا يعيشون معنا في مكان واحد، ويستطيع أي منا أن يتصور ماذا يعني القول هذه الوحوش كانت تعيش معنا؟.

قالت شكر: نحن كنا في(كوهر دشت) وفي أحد الأيام فصلوا عنا أربعين شخصاً وأحضروهم إلى هنا وكانوا يقولون بسخرية واستهزاء نريد أن نجري تجارب علمية وأنتم فئران هذه التجارب. نحن كنا نعلم أنهم يريدون أن يوقعوا بنا فاجعة جديدة، ولكننا لم نكن نعلم ما هو الموضوع إلى أن بدأوا أولا بإيقاف الجميع فترة طويلة من الزمن على أقدامهن بلا ماء أو غذاء. استطعت أن أبقى لستة أيام واقفة على أقدامي، ولكني بعد ذلك لم اعد أدرك ما الذي حدث. كان قد أغمي علينا وسقطنا على الأرض ولكنهم كانوا يوقظوننا بالضرب ويوقفوننا ثانية. وفي بعض الأحيان كلما كانوا يضربوننا لا يستفيق البعض منا فكانوا يتركونهن حينذاك ليعودوا إلى وعيهن. وهكذا بقينا لا نعلم ماذا سيحلّ بنا حتى نقلونا إلى سجن الوحدة السكنية، وكنا معصوبي العيون طول هذه المدة.

عندها بدأ التعذيب هناك وكان من نوع خاص. فقد كانوا يقولون لنا أنت كلب أو أنت حمار. ويطلبوا منا تكرار ذلك مرات لا حصر لها بألسنتنا. ثم تطّور الأمر فعندما صرنا نقول تحت التعذيب أنا حمار! كانوا يقولون: الآن إذن أنت حمار، لذايجب أن تنهقي! بعد ذلك كانوا يقولون الحماريجب أن يُركَب ثم يركبون علينا لنحملهن على ظهورنا. كما كانوا يطلبون منا أن نكتب ألف مرة عبارة (أنا حمار)! ثم ألفيي مرة وهلمّ جرًّا.

كانت شَكَر في هذه المرحلة مثل الأشخاص الآخرين الذين انهارت كل شخصياتهم وفقدت كل أشيائهم، وكانت دموعها تنهمر وتتعمق بالتفكير. تذكرت (ركسانا) حينما كانت تسير في قرنطينة وكانت تردد كإنسان ممسوخ: أنا كلب! أنا كلب! وكانت تبكي !

في بعض الأحيان عندما كانت شَكَر تتحدث عن سجن الوحدة السكنية بلا توقف، أنا أيضا كنت لا أستطيع الإستماع إلى بقية كلامها وكنت أكاد أفقد توازني وأكلّم نفسي: إلهي ما الذي يفعلونه بالإنسان؟ أي شخص يصدقهم؟ أي شخص يصدق؟ وكنت أصرخ في داخلي: إلهي أين أنت؟ في هذه الحالات يشعر الإنسان بأنه لا يمكن أن يشكو أمره إلا إلى الله فقط.

نسيت أن شكر كانت في بعض الحالات هائمة على هواها إذ كانت تردد الشعر ولم تكن قبل ذلك من أهل الشعر ولكن ماذا كان هذا الشعر الذي كانت ترددده بهذا القدر: (كنت

أجلس على السجادة بوقار جعلتني ألعوبة لأطفال حيي!). جدير بالتأكيد هنا على أنها كانت في حياتها الطبيعية وقورة وجدية ولم أرها يوما تتعامل بأسلوب غير مقبول على أي صعيد. ولكن آكلي لحوم البشر من أتباع خميني أعداء الإنسان هم الذين غيّروا حالها حطموا شخصيتها وشخصية الأخريات أيضا.

كان هذا في السابق، أما الآن وقد مضى أسبوعان على وجودي مع شكر. أستطيع القول أن وضعها قد تغير جذرياً ولم يعد يظهر عليها أي أثر لعدم التوازن. بل عادت كما كانت في الماضي مسرورة ذات معنويات عالية، وكنا نفكر في خطة كيف نغير مكاننا مع بعضنا عند وقت الزيارة لأنه في الزيارة السابقة أخبرنا آباؤنا وأمهاتنا أن يأتوا في وقت واحد لكي أتمكن من لقاء والديها وهي تلتقي والدي أيضا، قلت: يا شكر استعدي ليناديك أبي أمام الجميع بالأسماء المرحة التي كان يدعوك بها عندما كان يضحك.

هذه أن الصداقة الحميمة والعميقة التي تربطنا قربت عوائلنا كثيراً وأصبحنا كعائلة واحدة. ولهذا السبب كانت والدتي في كل زيارة وقبل كل شيء تسأل عنها وكانت والدتها تسأل عني.

وداع شكر

في الليل كنا نجلس أنا وشكر ومعصومة مع بعضنا ونتحدث، قالت شكر أنا أعلم أنه سيطلق سراحكن أنت ومعصومة ولكني سأبقى، قلت: من قال أنك ستبقين؟ نظرت في عيني وقالت إنهم لن يطلقوا سراحي وانا متأكدة. فجأة دخلت (شرارة) وهي ترتدي عباءة سوداء وتضع نقاباً على وجهها وقد كانت من ضمن أولئك المناضلات ولكن لأسبوع واحد ثم أصبحت توابة. وحينما وقع نظرها عليّ تغير لونها وغضت بصرها، قلت لها: هل تتذكرين؟ لم تقل شيئاً وصمتت، ثم قالت لتأتي شكر محمد زاده مع كل أغراضها.

لقد جاءت شرارة من الردهة رقم (3) الذي يعرف بقفص التوابين. وربما كانت تسميته بهذا الاسم مناورة من قبل النظام لكي يظهر قدرته على هزيمة سجناء إحدى الأقفاص وجعلهم توابين. وفجأة وقفت شكر قائلة: أنا لن أذهب. لا! أنا لن أذهب.

وهكذا فعل التوابون الخونة فعلتهم الإعتيادية فكتبوا تقريراً يفيد أن شكر ارتبطت مع بعض المنافقات. ومرة ثانية أصبح حالها سيئًا وكان قصد أولئك القذرين من وراء ذلك أن يجعلوا شكر أو المجاهدات الأخريات فريسة، ولكنهم لم يستطيعوا حتى في حالة عدم توازنها النفسي أن يجعلوها أجيرة لهم.

إذا كان البعد عن شكر والبعد بالنسبة لي مثل السم الزعاف، إلا أنني كنت مؤيدة لذهابها معهم دون مشاكل ولا إجبار بالقوة. وعندما تجاوزت شكر قضبان قسم إدارة السجن وقفت هناك وكنت انظر إليها بكل إصرار على تملّك نفسي وأعصابي، ولكنها كانت تنظر ألي وتذرف الدموع.

إلهي.....! كنت أتخيل بكل خلايا حواسي وجهها وحضورها في ذهني. كانت تحدثني عن شعورها المشؤوم بأنني لن أرى شكر ثانية! وأنا كنت عاجزة أمام حضرة الرب. لا...يا الله...لا، وبينما كنت أحاول أن لا أبكي، عادت شكر ثانية لتراني من جديد. وفي اللحظة الأخيرة نظرت إلي ومدت يدها من بعيد نحوي. أنا أيضا مددت يدي نحوها من خلف القضبان الحديدية اللعينة القاسية. وخرجت من باب الردهة الحديدي وأنا لا أزال أمد يدي نحوها وبكل حواسي كنت أصرخ (شكر)، وقلت للجميع: الرجاء أود أن أكون لوحدي فقط! والتجأت إلى السرير في أعلى الزنزانة. المكان الوحيد الذي لي، كي أطلق تحت البطانية سيل الدموع التي كبحت جماحها حتى تلك الساعة.

بعد هذه المسيرة والألام أكدت كل السجينات التي سمعتهن أن شكر بعد هذه التنقلات من مكان إلى آخر أثبتت وفاءها لقضيتها وتمسكها بأهدافها بعد أن ضحت بدمها خلال مجازر عام 1988 بحق السجناء السياسيين. لقد كانت طوال تلك الفترة في تنقل دائم بين الزنزانات الانفرادية والأقفاص التأديبية في سجن إيفين في الردهة (311) المسمى (آسايشكاه) أي المنام وغير ذلك. تعبت شكر كثيراً على أثر التعذيب المستمر والأمراض المختلفة التي أكلت بقواها. فأصبحت نحيلة جداً ومنحنية القامة. ولم تعد تُعرَف بسهولة

ومع ذلك تشهد السجينات اللواتي كن معها أن روحها كالجبل قوية غير قابلة للكسر، وكأنما كان لا يهزها أي شيء.

إطلاق سراحي

كان الحكم الصادر علي بالسجن قد انتهى منذ عدة أيام فنادوني. وجدت أمامي نفس ذلك (الملا ناصري). فسألني: انتهى حكمكِ. هل أنت مستعدة لأجل إطلاق سراحك أن تجري مقابلة؟ كان جوابي سلبيًا. فعدت إلى الردهة. كنت لا أعتقد أنهم سيطلقون سراحي ولكنهم نادوني بعد عدة أيام ونقلوني إلى سجن (إيفين). كنت أفكر ماذا حدث؟ بالتأكيد أن مرحلة جديدة من التحقيق والتعذيب أمامي. ولكن بعد يومين من وجودي هناك قاموا بإطلاق سراحي. كان في انتظاري كل من خالتي ماخالا وأبي، اللذين حضرا أيضا على الموعد السابق لإطلاق سراحي الذي لم يتم.

وحينما ابتعدنا قليلاً عن السجن، قلت لأبي وخالتي قفا. كنت أريد أن أرى سجن إيفين من بعيد مرة أخرى. وقفت ونظرت إلى ذلك الذي يشبه روح خميني وقد جثم كالغول على تلك الهضبة. فكرت مع نفسي كم من القلوب كانت تنبض خلف هذه الجدران. كم من العيون التي كانت تنظر إلى السماء من النوافذ الصغيرة للزنازين. وكانت تتطلع إلى الشمس: متى ستشرق؟

صرخت في داخلي، اللعنة عليك أيها الوحش كم من الأعزاء التهمت! اللعنة عليك أيها الوحش لأنك قد بددت كل الآمال! اللعنة عليك لأنك اختطفت كل أعزائنا منا! اللعنة! .....و تذكرت (روزبه) الصغير وأمله الكبير وصرخت في داخلي: ولكن أقسم بالله وبالحرية، سنسحقك! سنسحقك.....و.....سِرت.

[1] كانت من السجينات السياسيات المعروفات في زمن الشاه وكانت مرشحة مجاهدي خلق في أول دورة للبرلمان في طهران وتعد بطلة من أبطال الصمود والمقاومة في سجون خميني.

[2] كوهردشت بلدة تقع في ضاحية مدينة كرج قرب طهران.

[3] بهشتي: رئيس حزب «الجمهورية الإسلامية» الذي قتل خلال انفجار مكتب الحزب عام 1981 وكان رئيس المحكمة العليا للنظام الإيراني آنذاك.